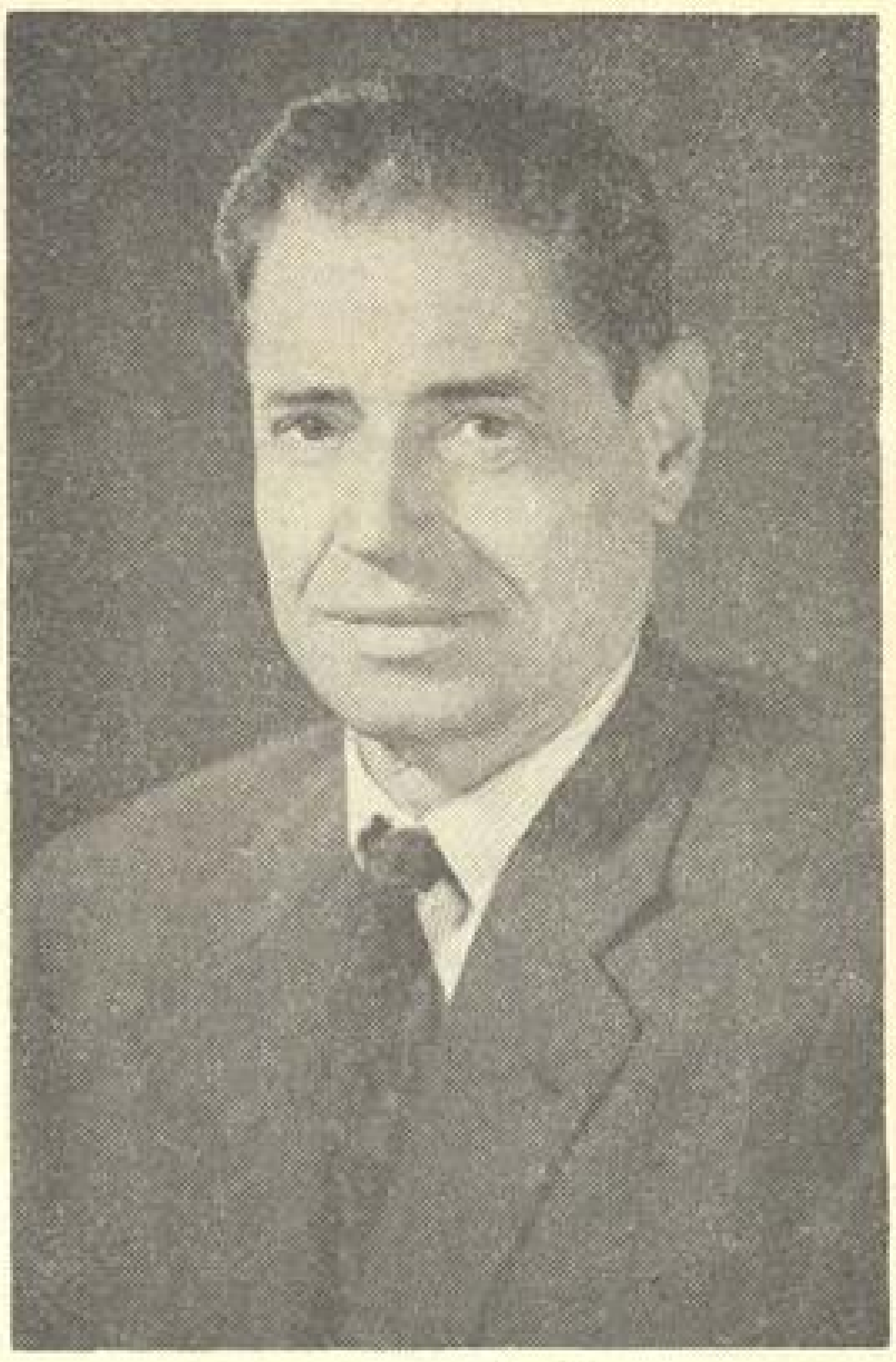


نقولا يوسف

اسكندر شلفون موسيقار وأديب منسي

بقلم نقولا يوسف

* * *

بين اعلام العرب الراحلين الذين اهتم الجيل الجديد اخيرا بتكريم ذكراهم ، وتخليد مآثرهم ، والاشادة بأعمالهم ــ سواء بكتابة المقالات عنهم ونشر المؤلفات، ام بعرض حياتهم على شاشتي السينما والتلفزيون ، أم بأنشاء المتاحف الجامعة لآثارهم ، واقامة التماثيل لاشخاصهم ــ عدد من كبار الموسيقيين والملحنين المحدثين ، ممن أدوا للموسيقى العربية جليل الخدمات ، وخلفوا روائع الالحان للاغنيات والمسرحيات .. وكان على راسهم الفنانون : سيد درويش (المتوفي ١٩٢٣) ، وداود حسني (١٩٣٧) وكامل الخلعي (١٩٣٨) ، وزكريا احمد (١٩٦١) وأبو بكر خيرت (١٩٦٣) الى جانب مشاهير المطربين ومنهم محمد عثمان ، وعبده الحمولي ، وسلامة حجازي .. واساطين الممثلين مثل : جورج ابيض ، وعزيز عيد ، وروزا اليوسف ، ونجيب الريحاني ..

وذكرت ــ بتداعي المعاني ــ زميلا عاملا وفنانا معاصرا لهم ورائدا من رواد الحركة الموسيقية العربية الحديثة ، المرحوم اسكندر شلفون الذي اختطفه الموت عام ١٩٣٤ في حادث أليم ، مختصرا عمره قبل ان يستوفي عمله ، طاويا ذكره في ضباب الزمن فظل في مكمنه تتخطاه الاضواء المسلطة اليوم على رفاقه ومعاصريه .. وقد اتيح لي ان التقي به مرات في القاهرة ، واحادثه واعرفه واستمع الى الحانه ، واطلع على آثاره ، غير ان تقدير مثل هذا الفنان الراحل يجب ان يحدد بمقاييس العصر الذي عاش فيه ، والوسط الذي اكتنفه .. وقد نشأ شلفون في عصر يتوارث فنانوه الموسيقى الشرقية القديمة وبخاصة التركية والفارسية ، وآلاتها وانغامها التركية المسميات ، و « البشروات ــ البشارف » والادوار و « المرشات » ، ثم الموشحات العربية التي تلقن ألحانها بالسماع ، وقلما تسجل في علامات « نوتة » موسيقية وينشدها المطربون والمطربات على « التخت » التقليدي .. ووسط هذه الموروثات كانت تتسرب الآلات الغربية كالبيانو والقيثارة وغيرهما ، والالحان والاغاني والاوبرات الاجنبية ، فيعمد بعض الملحنين الى التجديد والابتكار ، مستلهمين الروح المتطور والمستحدثات الفنية، وداعين الى تطوير الموسيقى القديمة وتقويمها ..

وولد اسكندر شلفون بالقاهرة في ٤ من اكتوبر ١٨٨١ وقضى بها جل حياته ، وان غاب عنها احيانا في بعض الاقطار العربية او الاوروبية ، ثم قضى نحبه خارجها .. وكان ابوه بطرس شلفون من كبار موظفي وزارة المالية ومن هواة الموسيقى الشرقية ، وكان يحلو له ان يؤلف في بيته تختا من اولاده الثلاثة ــ فريد واسكندر ونجيب ــ يعزف كل منهم على آلة معينة .. فنشأ اسكندر في بيت لا تنقطع فيه الالحان ــ يذكر ببيت «امير الكمان» سامي الشوا بالقاهرة ــ واخذ منذ طفولته يوقع على مختلف الآلات التي يراها حوله في المنزل ، كما راح والده يعلمه منذ الخامسة من عمره قواعد الموسيقى وانغامها ، والحقه في الوقت نفسه بمدرسة « الفرير » بالخرنفش في القاهرة ، وتخرج فيها مجيدا اللغتين العربية والفرنسية ، مولعا بالادب ونظم الشعر ..

ويروي فناننا بعض ذكريات طفولته وصباه في احد اعداد مجلته عام ١٩٢٢ : (١)

« كان ابى بطرس افندي شلفون رحمه الله من كبار الموسيقيين . وكنت في الخامسة من عمري ، فآنس في المواهب الموسيقية تتلهب . فبادر الى تعليمي . انه لم يعلمني العزف لانه ابصرني اتناول الآلات على اختلاف انواعها ، وكانت متوفرة في بيتنا فأتداولها قليلا فأحسن العزف عليها ، ولكنه علمني القواعد والانغام والبشارف والاغاني والموشحات وغير ذلك من المواد الموسيقية . فلم ابلغ السابعة من العمر حتى كنت موضع اعجاب جميع عشراء ابي ... زار ابي سعادة فريد باشا بابازوغلي ــ صديق ابي المرحوم ــ وكنت في الثانية عشرة من عمري ، فأبصرني اعزف على الكمانجة بما ادهش سمعه ، فقدم لي كمانجة هدية لا تزال في حوزتي تذكرني بهذا العهد

القديم – وسعادة فريد باشا بابازوغلي اشهر من ان يعرف ، وهو من كبار الموسيقيين الفنيين ..

ثم يقول لمنافسيه ومتنقصيه :

« وليذهب اولئك الى حضرة الاديب الكبير جورج افندي طنوس صاحب المنبر سابقا ومحرر القصص اليوم (١٨٨٠ – ١٩٣٦) فيعلمهم عني اخبارا كثيرة منها انني كنت الحن الروايات واعلمها في الجمعية التمثيلية التي انشأها في ١٩٠١ باسم « مجتمع التمثيل العصري » ، وسواها من الجمعيات . ومنها ان الاستاذ الشيخ سلامة حجازي رحمه الله (توفي ١٩١٧) كان يعجب بالحاني ومؤلفاتي الموسيقية التي كنت الحنها ولم اكن ابلغ بعد السابعة عشرة من العمر ، بل يخبرهم ان الشيخ سلامة حجازي اختارني لادون له الحانه بالعلامات الموسيقية بعد ان عانى الامرين مع من يدعون كتابة الموسيقى .. »

ولم يكن احتراف الموسيقى في ذلك العهد وسيلة هينة لكسب الرزق وبخاصة للشباب ، فالتحق فناننا بأحدى وظائف وزارة الاشغال في الحكومة المصرية منذ ١٥ مارس ١٩٠٠ وهو بعد في التاسعة عشرة ، وظل بها الى مايو ١٩١٩ حين ترك الوظيفة ليتفرغ بكليته لفنه الموسيقى وحده ، وان كان لم ينقطع خلال تلك السنوات عن ممارسة الموسيقى والاطلاع والكتابة .. واعانه المامه باللغة الفرنسية على دراسة المؤلفات الاوروبية الفنية والادبية .. والف في تلك الفترة رواية ادبية ، ونشر في الصحف والمجلات فصولا في الموسيقى والادب ، ووضع عددا من الالحان ، وحاول تأليف « الاوبرا » .

ولم يطل جهاده الفني الذي كرس له بقية حياته ، متفرغا للعمل الموسيقي وحده اكثر من خمسة عشر عاما (١٩١٩ – ١٩٣٤) فقد قطعه حادث وفاته ببيروت . وكان الطريق وعرا ، والثمرة المادية لرب الاسرة لا تسد الرمق ...

بدأ فناننا بأنشاء معهد بالقاهرة لتعليم الموسيقى سماه : « روضة البلابل » ، افتتحه بشارع الفجالة ثم نقله الى مكان أرحب ، وجعل منه مدرسة باسم « المعهد الموسيقي المصري » يعلم فيها الطلاب الموسيقى العربية والنوتة الموسيقية والعزف على مختلف الآلات ، كما افتتح مكتبة لبيع الآلات والادوات والمطبوعات الموسيقية ، واستورد بعضها من الخارج ..

وفي اول اكتوبر ١٩٢٠ اصدر العدد الاول من مجلته : « روضة البلابل » وكتب تحت عنوانها : « مجلة موسيقية فنية ادبية شهرية ، سنتها عشرة اشهر » .. وثابر على تحريرها ونشرها سبع سنوات ، اذ توقفت بعد عددل أول فبراير ١٩٢٧ .. وكان ينشر في كل عدد منها موشحة قديمة او دور او نشيد حديث ، او اغنية من نظمه . يدون مع كلماتها علاماتها الموسيقية « النوتة » في صفحتين كبيرتين او اكثر لتعزف على البيانو وسائر الآلات .. ومن الموشحات التي سجلها بالنوتة : قف على اكناف رامه ، وليالي الوصل عندي عيد ، وكللي يا سحب تيجان الربى ، وحير الافكار بدري الخ ... كما سجل بها عددا من البشارف منها : بشرف عثمان بك ، وقره بطاق ، والنظير ... وغيرها .. وعددا من « المارشات » القديمة مثل الجزائرلي ، وعاصم .. ومن الادوار القديمة انت فريد في الحسن ، ويا ميمتي ، وجددي يا نفس حظك ... وقد هدف من ذلك الى الاحتفاظ بالحان التراث العربي القديم عن طريق « النوتة » العصرية المتداولة في الشرق والغرب ..

وكان انشاؤه لمعهده ولمجلته، معاصرا للحركة الوطنية – ثورة ١٩١٩ وما اعقبها – فاسهم في هذه الحركة التحريرية بموسيقاه – ووضع عددا من الاناشيد الوطنية والاغنيات نظمها ولحنها ونشرها ومن ذلك : أحب بلادي، ومارش الترحيب بسعد زغلول ، ومصر ، وتوت عنخ آمون ، وانا انتهيت ، وقد نظم هذه الانشودة الاخيرة عقب وفاة سعد زغلول واستوحاها من العبارة الاخيرة التي نطق بها على فراش الموت . وجاء النظم في سبع رباعيات من الشعر الزجلي مع علاماتها الموسيقية ، ونشرتها مجلة « مصر الحديثة المصورة » في عددها الاول ، ومطلعها :

انا انتهيت انا انتهيت وبحكم رب السما ارتضيت
قضيت حياتي في خدمة بلادي والرب يعلم باللي نويت
انا انتهيت

والى جانب مقالاته الادبية والتاريخية والفنية الخاصة بالموسيقى والدعوة الى نشرها بين الشعب ، والنهوض بها تحقيقا للشعارين اللذين وضعهما على غلاف مجلته : « اذا شئت أن تعرف مكان أمة من العلم والاخلاق فابحث عن موسيقاها » و « الموسيقى سر من اسرار تقدم الامم » – فقد افسح صدر مجلته « روضة البلابل » لمقالات الادباء والفنانين في الموضوعات الموسيقية ، وافرد بابا لنقد المؤلفات في هذا الفن كنقده في مقالات مسلسلة لكتاب « النسب الموسيقية» الذي نشره معاصره الموسيقار منصور عوض .. وبابا لشرح وتعليم النغمات ، وقياس المسافات على الاوتار ، والتدريب على استخدام آلات الموسيقى .. وغيرها من الدروس ..

ونشر في « روضة البلابل » روايته الغنائية « أوبرا » : « السبايا » مسلسلة ابتداء من عدد يناير ١٩٢٣ (ثم اصدرها في طبعة خاصة ، وتعتبر من اروع ما كتب وقد تحدث عنها الشاعر اللبناني سعيد عقل حديثا مطولا في اذاعة بيروت عام ١٩٣٨ « الاديب ») .. وهي من تأليفه ونظمه وتلحينه ، في ثلاثة فصول ، وجعل مسرحها في رومة القديمة واشخاصها من قادة الرومان والشعب والسبايا .. وذكر في هامشها ان « الرواية الغنائية هي الشعر فقط اما النثر فقد اضفناه اليها

للزيادة في الايضاح » .. كما ذكر في مقدمتها انه نظمها ولحنها منذ عام ١٩١١ . وترقب الفرصة لابرازها على المسرح ، ولكن لم يقدر لها الظهور . فقدمها في مجلته (يناير ١٩٢٣) للجمهور : « الذي لا يتردد امام الاشياء ، بل ينطق بحكمه بشرف ونزاهة ، مجردا عن كل غاية وبعيدا عن كل تأثير » . ثم لخص روايته وموضوعها التاريخي الاسطوري في بضع صفحات ، وافتتحها باجتماع شعب رومة في الساحة الكبرى يطلب الحياة الحرة وينشد لها :

املئي الكون جمالا زاهيا	**اطلقي شمس النهار**
واسكبي للزهر خمرا صافيا	**حركي ماء البحار .**
وامزجي الاثمار في جناتها	**لبنا فيه العسل**
وقلوب الناس في هزاتها	**قوة تحيي الامل .**
ارسلي صبحا على وجه الغدير	**نسمات محييه**
واملئي الوديان بالخير الوفير	**والحقول الناميه .**
انت روح لفؤاد الكائنات	**في الورى منذ الازل**
كل اجزاء البرايا في الحياة	**اخذت منك الشعل**

وتختم الرواية بانتصار الشعوب التي سبى « روميلوس » صباياها ونساءها بعد حرب طويله ، واستولوا على رومة بقيادة تاتيوس الذي ساعدته حبيبته الرومانية « تاربيا » ...

والف اسكندر شلفون ثلاث روايات اخرى هي : « صبر العذارى » و « معبد النيران » و « منهل العبرات » ولم يكتبها للمسرح ..

وفي عام ١٩٢٧ نشر اسكندر شلفون كتابا (في ١٦٠ صفحة من الحجم الكبير) بعنوان : « تاريخ الموسيقى العربية » تأليف جول روانت « الجزء الاول نشر تباعا في مجلة روضة البلابل ــ وهو القسم الاول من دائرة المعارف الموسيقية التي اشترك في وضعها طائفة من اساتذة المعهد الموسيقي الفرنسي .. » واضاف اليه شلفون من الهوامش والتعليقات والنقدات والتصحيحات ــ ما يوازي في الحجم نص الكتاب الفرنسي .. واستعان بكتاب « الاغاني » العربي وبغيره ، في كثير من الاضافات الخاصة بتراجم مشاهير الغناء والموسيقى في العصور العربية القديمة .. كما وصف في هوامشه آلات الموسيقى العربية وتقسيم نغماتها ، وانتقد المؤلف الفرنسي في كثير من الاحكام ..

ثم رأى ان يؤلف قاموسا في فن الموسيقى ولم ينشره اذ توفي قبل اتمامه ..

وكان قد كتب تقريرا قدمه الى « وزارة المعارف » عام ١٩٢٢ عن حال الموسيقى العربية في عصره ، ووسائل النهوض بها ..

ولحن اغنيات لبعض المطربين والمطربات من معاصريه ، مما سجل على اقراص « الجراموفون » ــ ولم تكن دولة الاذاعة والراديو قد ظهرت بمصر بعد ــ كما شارك في العزف بتلك التسجيلات ــ وكان يرعى من تلاميذه وتلميذاته من يكتشف فيهم المواهب الموسيقية او جمال الصوت ، ومن هؤلاء المطربة الناشئة يومذاك : « عين الحياة » ــ وكانت من الاسر الكريمة المحافظة واشتهرت في العشرينات ثم اعتزلت الفن بعد زواجها ــ فقد عاونها على تسجيل اغانيها في اكثر من عشر « اسطوانات » ، ولحن بعض اغنياتها ومنها : « نصال من جفونك ام سهام » ..

وكان في الوقت نفسه يشارك فناني « نادي الموسيقى الشرقي بالقاهرة » ــ صفر علي ومصطفى رضا وغيرهما من عمداء هذا المعهد ــ في العمل على ترقية الموسيقى العربية ..

وطاف ببعض الاقطار في رحلات فنية فزار تونس للبحث عن بعض المخطوطات ، وعن تراث العرب في الموسيقى ، متعاونا مع البارون رودلف درلنجيه احد المستشرقين ، وهناك قابل باي تونس فاهدى اليه وساما .. كما سافر الى فرنسا لزيارة معهد الموسيقى « الكنسرفتوار » والتعرف الى فنانيه.. وقام عام ١٩٣٠ برحلة لاقامة حفلات موسيقية مع تلميذته المطربة « سوسن » (وهي الوحيدة الان التي تحفظ له عدة الحان لم تسجل ، وكان يجدر بالاذاعات العربية تسجيلها حفظا للتراث الفني « الاديب ») وتنقل بين الاسكندرية وفلسطين وسورية ولبنان .. وفي لبنان دعي لالقاء المحاضرات عن الموسيقى في بعض الاندية الفنية .. (٢)

ولم يجمع معظم كتابات وابحاث ونقدات اسكندر شلفون المتفرقة في الصحف والمجلات في مجموعات ومجلدات ، وكذلك اشعاره وازجاله التي كان يفتن في نظمها واوزانها لتطابق الالحان والنغمات ، ثم هذه الالحان المدونة ــ وان كانت مجلدات مجلته : « روضة البلابل » في سنواتها السبع ما زالت تحتفظ بالكثير من آثاره الادبية والفنية لمن شاء البحث والنقد والتقييم لهذا الرائد .. ويلاحظ انه كان يوقع الكثير من مقالاته وابحاثه « بامضاء مستعار » مثل : بستاني الروضة ، وصاحب الروضتين ، وكردانس ، والبلبل الحزين ..

(١) مجلة « روضة البلابل » عدد ١٠ السنة ٢ ــ أول يوليه ١٩٢٢ ــ
(٢) هامش الاهرام ــ للصحافي العجوز « توفيق حبيب » ونشره في كتاب تراجمه « برسوم العريان وآخرون » ــ القاهرة ١٩٣٤ ص ١٥٠ ــ ١٥٤ ــ (٣) محاضرة القاها شلفون قبيل وفاته على أعضاء « جمعية التضامن الادبي » في بيروت بعنوان : « معنويات الموسيقى » ونشرتها « مجلة الناشئة البيروتية » ــ (٤) رسالة خاصة نشرتها « مجلة الفنون الجميلة » ببيروت في ١٥ ــ ١٠ ــ ١٩٣٧ ــ (٥) لقد اختفت جميع مؤلفات اسكندر شلفون وكتاباته المخطوطة بعد وفاته بما في ذلك « القاموس الموسيقي » الذي انتهى من تأليفه . ورثاه كل من الاخطل الصغير وامين نخلة بقصيدة . ولزيادة المعلومات نحيل القارىء الى عدد مجلة « الاديب » الجزء ١٠ السنة ١١ (١٩٥٢) صفحة ٣٤ : « اسكندر شلفون الاديب الشاعر والعالم الموسيقي » بقلم منير الحسامي (الاديب) .

وقضى شلفون سنيه الاخيرة متبرما ، حائرا متشائما فالناس حوله لا يقدرون الموسيقى والادب ، ولا يفهمون الفنان ولا يرعونه .. وقد اغلق مجلته عام ١٩٢٧ ثم معهده ، والتمس الرزق من العزف على « التخت » .. والحق انه لم يتفرد ببؤسه في عصر كان الشرق العربي جميعا لم يزل مخدرا بأفيون الاستعمار التركي وورثه الاستعمار الاوروبي ، فلم يدع له جهاده المرير في الخلاص من ورطته ، فرصة الاهتمام بالموسيقى وسائر الفنون الرفيعة .. وعاش الفنان يومذاك غريبا ضائعا يبدأ حياته من الحضيض ويقضي زهرة العمر في فقر ، فاذا اسعفه الحظ في أواخر العمر بشيء من المال ، لا يلبث ان يتبدد ولا يبقى بعده شيئا .. هكذا كانت قصة حياة سلامة حجازي ، وسيد درويش ، وكامل الخلعي ، وداود حسني ، وزكريا احمد ، واسكندر شلفون ، والقصبجي .. وغيرهم من اساطين الموسيقى والتلحين ..

غير ان الموسيقار اسكندر شلفون كان في الوقت نفسه كاتبا وشاعرا ، ولهذا عمد الى تصوير آلامه بقلمه ، وترك في مجلته ومحاضراته ورسائله الخاصة ، صفحات قاتمة مليئة بالنقد والشكوى والمرارة ورثاء المثل العليا ــ وهو في الواقع كان يعبر عن حال الفنانين في عصره ، وما يلاقونه من شدائد بسبب انصراف الناس عن الفن واهله .. فنراه في محاضرة القاها ببيروت اواخر ايامه (٣) يصف شعور الموسيقى ودقة حسه ، ويقول : « .. لذلك تجد الموسيقار المطبوع متطرفا في حبه او بغضه ، عنيفا في رضاه وفي غضبه ، شديدا في وفائه وفي انتقامه .. قاسيا في امله وفي يأسه .. ولذلك وجب ان يكون الفنان احق الناس برحمة الناس ، واين الرحمة في قلوب الناس ؟ وجب ان يكون الموسيقار احق الناس بالعدل والانصاف ، والرفق والحنان ، والناس لا يعطونها بل هم يطلبون ذلك عندما تحل بهم النكبة وتصيبهم الهزيمة ، ويهبطون من قمة القوة الى هاوية الضعف .. »

ثم يعرج الى التحدث عن نكبته :

« أوليست هي قسوة الناس التي وقفت بروضتي الموسيقية عن النمو والازدهار ؟ او ليس هو ظلم الناس الذي حطم اليراع بين أصابعي ، وجعلني امزق اوراقي واطوي صحائفي ؟ او ليس هو حسد الناس الذي ابعدني عن وطني ، وشردني في جوانب الارض وبلاقعها ؟.. او ليست هي شراهة الناس وطبائعهم الجامحة هي التي جعلتني اهدم وكري وأتمرد على النظم واسير حائرا بلا وكر ؟! ... »

وكذلك يقول في رسالة خاصة أرسلها الى صديقه الموسيقار الكسي اللاذقاني ونشرتها « مجلة الفنون الجميلة ببيروت » عام ١٩٣٧ ــ بعد وفاته : (٤)

« ... ماذا تريد ان أقول لك يا صديقي العزيز ، وماذا تبتغي ان اكتب ؟ لقد كان الادب والفن نكبتين على حياتي ... أنا أحبك يا الكسي ومع ذلك هل سمعتني شكوت اليك ؟ هل رأيتني مرة افتح لك كتاب الامي وشجوني ، واكشف لك الستار عن دنيا مصائبي ولوعاتي ؟ وهل رأيتني مرة الا باسما هازئا مستهترا ؟ هكذا اصبحت وهكذا سأدوم حتى أموت ! ولكني اذا تناولت القلم فالمصيبة عظمى ، لان ذلك القلم يحرك الساكن ، ويثور بالكامن ويوقظ الراقد ! دعني في يأسي ــ او عد وضع يأسك الى جانب يأسي . فاذا ما احتدم اليأسان ، قد ينبت منهما ما يسمى برعمة ، وقد تنمو البرعمة فتصبح زهرة ، والزهرة اما أن تكون يوما من الايام حلية لصدر عروس ، او تكون دمعة فوق احد القبور !! .. »

ثم شاء القدر ان تكون خاتمة مطافه وحياته مقرونة بفاجعة !. كان ذلك عند ظهر يوم ١٤ مارس (آذار) ١٩٣٤ أحد أيام الربيع الباسمة ، وقد جلس اسكندر شلفون يكمل ترجمة ديوان « الجبل الملهم » للشاعر اللبناني باللغة الفرنسية شارل القرم ، ينقله نظما الى العربية ، في كازينو كوكب الشرق ببيروت فهوت القهوة على من فيها ، واخرج فناننا من تحت الانقاض جسدا هامدا ..

وشاءت الاقدار ايضا ان تلتقي هناك روحه مع روح صديقه القديم ــ الاديب طنيوس عبده ــ وكان قد ارتحل للاستشفاء بلبنان ، ومات عقب وصوله بثلاثة ايام في ٢٢ من ديسمبر ١٩٢٦ ، فكانت الجنة اللبنانية مثواهما .. وفي قمة ذلك البناء القديم الذي قام على اطلال منتدى « كوكب الشرق » فاضت في صومعته منذ أيام روح الشاعر الاخطل الصغير مخلفا برجه العالي نصبا فنيا فوق تلك المقبرة الضائعة (٥) .

الاسكندرية — **نقولا يوسف**

ويح السنين

الى الشاعر الكبير الصديق امين نخله

حتى التوافه أمست ، في نذالتها ، تبدي التحدي .. وما كانت تحداني !
ويح السنين ! وليست ذات معرفة بما تجاهد في تقويض أركاني ..
أشد ظهري ، وأمشي حاملا ثقلي ، آبى الخضوع ، وآبى ذل خسراني
أمشي .. فأسمع نعيي أينما اتجهت أشواق نفسي .. كأن الكل ينعاني !

حلب — **علي الناصر**

قمقم الذهب

الــى ابراهيــم المصري

فــي القاهرة

وتلاقينــا ، فقلنا : عجبــا   من ترى يعرف منـــا السببا
ان يكن شوقا فقد مات الهوى   أو يكن لهوا فقد ولى الصبى

.. فتح البــاب ومدت يدهــا   (مرحبا) واطيبها من (مرحبا)
خلت ان البيت ، بيتي ، كلـه   ما جفا الجفن والا القلب نبــا
مطمئنا ، سرت فــي فسحته   أرفع الصوت ، واعلــي القببا
وأعد اللون فــي ألواحــه   والمصابيح ، وتلــك الكتبــا
والمحاريب علــى جدرانــه   والصدى ، والمغلــق المرتقبــا
غرفــة نــاءت عليهــا غرفــة   وستار خفــت ان ينسحبا .

وأهاديهــا ، فتصحو ريبــة   وتهاديــني فأنســى الريبــا
عاتب لمحــا ، فــان أعيابها   عتبي ، ملت اليهــا طربــا
ألثــم العين التــي ترمقنــي   واليد النشوى ، وتلك الهدبا
وشموخا كان عندي المشتهى   وحنينا كان ، عنــدي ، المأربا

هذه ((اللوحة)) فــي هالاتها   قصة ، أختاه ، تروي العجبا
يــوم اعطيتك أجفاني ومــا   خبــأ السفح وهاتيك الربى

وبــلادي :
قبلة طيبة
وشبابــي :
قبلات أطيبــا

يــوم علمتك ان المجتنــى   قمقم نسكب فيــه الذهبــا
لؤلؤ ، مــن حبة فــي حبــة   حبس الضوء وسد المهربــا

يــوم كنــا نسمة هائمــة   نقطع السهل ونطوي الهضبا
ونرود الامل الصعب ، كمــا   رادت الرؤيا المدى المحتجبا
نبدع الحرف علــى تكوينه   عصبا ، ننسج منــه العصبا
وابتهالات كــلألاء النــدى   وأحاديث كأنفــاس الصبــا
عازف ، يعزف مــن الحانه   واهب ، يرشف ممــا وهبــا

... ثــم غابت في الحواشي لمحة
... ثــم عــادت خبــرا مقتضبــا

... ثم ودعت علــى سلمها   ، في المقادير، الضحى والمغربا
كــل عمري قبلــة هاربة   كل كأسي شربة لــن تشربــا
تعبت نفسي مــن نفسي كما   يتعب الغاصب ممــا اغتصبا

الياس خليل زخريا



ابراهيم المصري

رابندرانات طاغور

بقلم ابراهيم المصري

* * *

لفن طاغور المسرحي طابع خاص . فهو فن لا يعنى بذلك التقسيم الآلي او تلك الحبكة الروائية المنطقية الملحوظة في معظم آثار المسرح الاوروبي .

وانه ليخيل الي ان مسرحيات طاغور قد كتبت لتمثل في الهواء الطلق ، وتختلط بعناصر الطبيعة ، وتندمج في القوة الابدية الخالقة . فمسرحياته لا تصور الواقع تصويرا مباشرا ، بل ترف عليه ، وتلمسه لمسا رقيقا . ومن خلال استعاراتها ومجازاتها ورموزها تميط لنا اللثام شيئا فشيئا عن اعمق الحقائق البشرية .

فمسرحية « شيترا » مثلا تعتبر قصيدة من الشعر الخالص ، قصيدة في قالب حكاية ، قصيدة تأملية عن المراة ومعنى الحب ، يحاول الشاعر ان يرسم لنا فيها كيف ان الاجسام مهما تحابت فهي عاجزة عن الاتصال بالارواح ، وكيف ان الطبيعة تخدع الناس بوهم اللذة الحيوانية ووهم القوة البدنية . فتظن المراة انها محبوبة لنفسها بينما هي اللذة التي ينشدها الرجل فيها . ويظن الرجل انه محبوب لشخصه بينما هي القوة التي تنشدها المراة فيه . وكل هذه الاعراض المادية ليست في عرف طاغور الا مظهر عبودية الجسد للطبيعة .

فالطبيعة تحكمنا بوساطة الجسد ، والجسد تكبله الفريزة ، والفريزة تنزع الى كل ما هو مادي ومحدود .

فالشاعر وهو يصور لنا سلطان الجسد والفريزة ، ويبين لنا كيف ان هذا السلطان القاسي ينحدر بالحب عند الرجل الى طلب اللذة وعند المراة الى الولع بالقوة ، انما يريد ان يحررنا من طغيان الغريزة والجسد ، ويدفع بنا الى مكافحته والتفوق عليه ، بحيث يمكننا ونحن نحب ان نضع تفاهم الفكر وتوافق القلب وتآلف العاطفة والوجدان فوق مشتهيات الجسد الفاني ، فنستطيع ان نلهب فينا شعلة الروح الخالدة ، وان نتواصل في جوها الرائع غير المحدود ، حتى ولو تجردنا كل التجرد من نوازع الجسد ، واصبحنا في الحب اشباه ملائكة .

فحب الروح هو الذي يخنق الرذائل التي يولدها حب الجسد ، كالانانية والغيرة والحيازة والحقد عند القطيعة والرغبة في الانتقام . وهو الذي يرتفع بنا ، ويسمو باهوائنا وميولنا ، ويحقق اندماجنا الكامل في الشخص الذي نحب ، ويجعل من الحب سبيلا لابداع انسان متفوق اعلى .

هذا هو جوهر مسرحية « شيترا » .

اما في المسرحية الثانية « مكتب البريد » فيصور لنا طاغور شخصية « آمال » ذلك الفتى الحدث المريض الذي ارغمه الطبيب على الراحة ، وحذره من حرارة الجو وبرودته ، وحبسه بين جدران اربعة . فأخذ الفتى يتأمل الحياة الفسيحة من خلال قضبان نافذته ، ويتطلع الى السماء الصافية تارة ، والى الارض المكفهرة المائجة تارة اخرى ، ثم يستوقف المارة ، ويحادثهم ، عساهم ان يرفهوا عنه بأن يقصوا عليه اغرب النوادر واحسن القصص . ويظل « آمال » يجيل الطرف حوله فلا يرى غير عمدة القرية الغليظ ، واللبان الساذج ، والفتاة « سودها » بائعة الزهر الحسناء التي تلوح له بازهارها الناضرة الندية وتبتسم . فيفكر الفتى « آمال » في الحياة البعيدة الغامضة التي يجهلها ، ويتمنى لو استطاع ان يخرج من سجنه ، ويذهب فيقطف الازهار ، مع الحسناء سودها ، ويرحل في صحبة اللبان حيث الماعز والبقر ، ويقفز بغتة فيضم اليه صدر الطبيعة العريض ، ويمرغ عليه وجهه الشاحب المحموم .

فشخصية « آمال » هذه تمثل طور الحداثة الذي يمر به كل فتى وفتاة . وما سجن مرضه الا رمز لسجن الحداثة الذي طالما شقينا ونعمنا فيه . فارواحنا في تلك السن تهفو الى معرفة الحياة ، وتتوق لاعتناقها والفناء فيها ، وتحس انها عاجزة مكبلة فتنفق الساعات الطويلة في التحرق والتأمل والحلم .

ولكن ابدع ما في هذه المسرحية هو ان « آمال »

جعل يحدق في اعمدة مكتب البريد واسلاكه ، ويتصور ان اميرا عظيما يهيمن على شؤون القرية ، وان هذا العمود المرتفع هو رايته ...

ثم تروق الفكرة للفتى فيندفع ويسائل نفسه ما اذا كان يمكن لامير عظيم ان يكتب خطابات كجميع الناس ، وما اذا كان يمكن لـ « آمال » ان يكتب الى الامير العظيم خطابا ، وما اذا كان يوجد في مكتب البريد خطاب من ذلك الامير العظيم اليه ...

فهو ينتظر ... ينتظر رسالة الامير العظيم ، والمرض يعصف به ويكاد يجهز عليه . وما رسالة الامير هنا الا رمز لقوة الامل في الحياة ، وقوة الشوق الى المعرفة والعمل ، وقوة الغيب المنقذة التي تعلل بها الحداثة نفسها فرارا من سجنها الضيق وتطلعا الى دنيا الرجولة والحرية .

ففي هذه المسرحية شعور عميق بعظم الفارق بين الحلم والحقيقة ... ولكنه شعور لا يولد في النفس عوامل الخيبة والحسرة واليأس بل يضاعف فيها حب الجمال والمعرفة ، ويجدد في اطوائها قوى الامل والطموح والجهاد .

ومع تفوق طاغور في هذا النوع من التمثيليات ذات الطابع الشعري ، فانت لا يمكنك ان تعرفه وتتذوقه تماما الا في شعره الخالص الذي يلتقط حقائق الحياة الباطنية وهو يسبح في جو من التصوف الفاتن والغزل الرقيق .

واليك هذه الامثلة من شعره :

الحبيب الاعظم

الشتاء الليلة يحمل نسمات الربيع ، والهواء يرف حولي كأنه يتماوج على شراع من حرير ، والاغصان تتهامس ، والريح تغمغم ، والصمت يشبه آنية كبيرة يتساقط فيها الحلم كالرحيق ...

ما اسعدني بهذا الحلم وان كان مبهم الصورة في خاطري ...

في اي شيء احلم ، وفي اي شيء افكر ، لا ادري ...

انا سابح في فتور حواسي ، ممعن في تنشق النسمات جهدي ، مستغرق في السهوم والشرود كأني روح حائر تطوف به اشباح ...

نعم . ادركت . فهمت السر ... لقد تخلصت من عقلي ، وتحررت من بدني ، وتجردت من ماديتي ، وانطلقت على اجنحة هذا الحلم المبهم الغامض ابحث بالرغم مني ، وفي نشوة شرودي وسهومي وخلاء نفسي ، عن ذلك الحبيب الابدي المطلق العظيم الذي هو انت يا ربي ! ...

نور الله

هوذا الحائط الكبير ينشق ، ونورك الساطع يا الهي ، نورك الشبيه بضحكة ناضرة وخاطفة ومجلجلة ، يندفق من الحائط فجأة ويغمر الدنيا ! ...

ان قلب الليل نفسه قد اخترقه نورك العظيم . وانت بسيف نورك الباتر تمزق حجب الشكوك وتقطع عقد المخاوف والاوهام ! ...

اسرع ... اسرع الي ايها الرائع المروع في بياضك الناصع الذي لم يَشُبْه اي دنس ! ...

ان طبول نورك تدق اغنية من لهب ، وشعلة نورك ترتفع في الفضاء كراية تهتف بفرح الحياة ، والموت تجاه نورك ينهار ويحتضر في تفجر يملأ دويه قلب العالم ! ...

الا ان هذا النور لهو انتصار الفرح ... فرح الانسان بخلاصه من ذله ، وخلاصه من رجسه ، وخلاصه من نفسه ، وعودته طاهرا نقيا اليك ! ...

عند قدومك يا محبوبي

حين تأمرني بالانشاد يخيل الي ان قلبي يجب ان يتفطر كبرياء وعزة . فانظر الى محياك ويتوارد الدمع الى عيني .

كل ما في حياتي من نغم ابح غير متناسب يذوب في انشودة فردة منسجمة صافية ، وتنشر عبادتي اجنحتها كطائر في فراره على عرض اليم .

اني عالم بانك تجد لذة في نشيدي .

اني عالم باني لن احظى بالمثول في حضرتك الا كمنشد فقط .

ان نشيدي المبسوط عن آخره يلمس بطرف جناحه قدميك التي كنت قد يئست من الوصول اليها .

وهأنذا في نشوة الفرح بالانشاد انسى نفسي وادعوك بيا حبيبي انت الذي هو ربي ! ...

الخطايا الاربع

لماذا انطفأ المصباح ؟ ... لقد احطته بردائي لاجعله في مأمن من الريح . لهذا انطفأ المصباح ...
هذا هو الخوف ...

لماذا ذبلت الوردة ؟ ... لقد ضممتها الى صدري في لهفة وقلق . لهذا ذبلت الوردة ...
هذا هو خداع الحب ...

لماذا جف النهر ؟.. لقد اقمت حياله سدا ليخدمني انا وحدي ... لهذا جف النهر ...
هذه هي الانانية ...

لماذا انكسر وتر العود ؟ ... لاني اردت ارغامه على اعطاء نبرة عالية ... لهذا انكسر وتر العود ...
هذه هي الكبرياء !

بين الشاعر وحبيبته

قالت المراة للشاعر :

– اني لاحس اني ممتزجة بالتراب الـــذي تمشي عليه يا حبيبي ، واني انا نفسي ماء البحيرة الذي تستحم انت فيه ، وان وجهي هو المرآة التي تطالع فيها وجهك ، وان انفاسي هي الهواء الذي منه ترتوي ومنه تعيش .. فنظر اليها الشاعر وقال :

– وانت فوق كل هذا خاتم الذهب الذي يلمع فـي اصبعي ... وغاية ما اتمنى ان ابذل المستحيل كي اكون الحجر الكريم الذي يزين خاتم الحسن والولاء الذي هـو انت يا حبيبتي ! ...

حـوار ...

قال في غمغمة : ارفعي عينيك يا غرامي
فعنفته وقلت : اذهب !
ولكنه لم يتحرك !

ظل تجاهي ، وابقى يدي الاثنتين في يديه فقلت : دعني !
ولكنه لم يذهب !

قرب وجهه من وجهي . فنظرت اليه وقلت : يـــا للعـــار !
ولكنه لم يأت بحركة !

لمست شفتاه خدي فارتعشت وقلت : انـت تجسر على الكثير .
ولكنه لم يخجل !

وضع زهرة في شعري . فقلت :
عبثا تحاول !
ولكنه لـم يضطرب !

اخذ عقد الزهر من عنقي وذهب .
اني ابكي وأسأل قلبي :
لمـــاذا لا يعود ؟! ..

فردوس الحرية

هنا حيث العقل لا يعرف الخوف ، والراس شامخ .
هنا حيث المعرفة تصطخب كأمواج البحر .
هنا حيث العالم لم يجزأ بين جدران ضيقة منفصلة .
هنا حيث تتصاعد الالفاظ من اعماق الصدق .
هنا حيث المجهود المطرد يمد ذراعيه نحو الكمال .
هنا حيث مجرى العقل الصافي لم يسر ضالا الـى الفناء في صحراء العرف والتقاليد القاحلة .
هنا حيث يتقدم الذهن تحت قيادتك نحو التوسع الدائم في الفكر والعمل ،
اذنك يا الهي ان تدع وطني يستيقظ فـي فردوس الحريـة هـذا ! ...

الشاعر والعصفور

برغم المساء الذي يدنو وئيـــد الخطى مسكتا كـل الاناشيد ،
وبرغم رحيل رفيقاتك وتعبك ،
وبرغم الخوف الذي يسري في الظلمات ،
وبرغم السماء المقنعة ،
استمع الي ايها العصفور ، يا عصفوري الصغيـر : اياك ان تطوي جناحيك !...

ان الظلمة التي تكتنفك ليست ظلمة اوراق الغابة ، انها البحر الذي ينتفخ كثعبان هائل .
ان ازهار الياسمين التي ترقص امامك ، انما هـي زبد الامواج الذي يبرق تجاه عينيك .
انت بعيد ... بعيد جدا ... ايـن هـي ضفتك الخضراء المشمسة ؟
اين هي حياتك ، اين هو عشك ؟ ...
اما زلت تأمل في العودة اليه ؟ ...
استمع الي ايها العصفور ، يـــا عصفوري الصغير : اياك ان تطوي جناحيك !

الليل يتمدد على الطريق ...
والسحر يغفو خلف الجبيلات المظلمة .
والنجوم البكماء تعد الساعات .
والقمر الشاحب يسبح في الظلام العميق .
كل ما في الكون يخيفك !... كل مـــا في الكون يطاردك ويدفعك مكرها الى عشك !...
ومع ذلك فاستمع الي ايها العصفور ، يا عصفوري الصغير : اياك ان تطوي جناحيك ! ..

لقد تضاربت الظلمات، واختلطت الاجواء، وعصفت بالسماء ريح عاتية ...
انتهى كل شيء !... لم يعد لك اي امل ! ..
لم يعد في وسعك ان ترســـل لا غمغمـــات ولا صرخات ! ...
لم يعد لك عش ولا فراش للراحة ! ...
ليس لك غير جناحيك والسماء اللانهائية ! ...
فعلام الخوف وعلام الحزن ؟...
حلق في الجو جاهدا . اضرب فـــي الفضاء مـا استطعت . عش طليقا حرا برغم الظلام والريح والموت .
واياك ، اياك يا عصفوري الصغير ان تطوي جناحيك !..

ايهـا المـوت

ايها الموت ، يا موتي ، قل لي لماذا تهمس في اذنـي بمثل هذا الخفوت ؟ ...
لقد تسللت الي في هدأة المساء والزهر يذبـــل ، والماشية تعود الى المذود ، ثـم جلست خفية بجواري ،

وطفقت تنطق بكلام لا افهمه ...

اتعتقد اني اخافك ؟ ... أتأمل بكلامك ان تداهنني فتأسرني . ثم ترقدني في غمغمة خاطفة تحت افيون قبلاتك الباردة ، ايها الموت ، يا موتي ؟!..

اريد ان يقام لعرسنا قداس رائع !... اريد ان ابصر اكليلا من الياسمين منعقدا حول جدائل شعرك الوحشي !...

اريد ان ترسل الي من يتقدمك حاملا علمك !...

اريد ان تلتهب الظلمة كلها من نار مشاعلك الحمراء، ايها الموت ، يا موتي !...

فتعال اذن ... تعال على نغم اصطفاق صنوجك الصدفية ، تعال في ليلة فارقها النعاس . البسني الرداء القرمزي وضم يدي الي يدك وخذني . لتكن عربتك ببابي على استعداد . ولتصهل خيولك من عدم اصطبارها .

امط اللثام ، وانظر الي مواجهة وفي انفة وانقذني . انقذني من غدر الحب وغدر الامل وغدر الحياة ، ايها الموت ، يا موتي ! ...

هذا هو طاغور الكاتب المسرحي والشاعر . ولكن الرجل الى ذلك مفكر كبير وصاحب رسالة اجتماعية وانسانية ، اهتم بها ، ورصد عليها الكثير من جهوده ، وطاف بمختلف عواصم العالم مبشرا بها .

ولقد لخص المفكر الشاعر رسالته في كلمة جامعة عنوانها « غاية التطور » القاها في حفل كبير اقيم له في لندن !

غاية التطور

« ما الغرض من كل هذا الصراع في سبيل التطور . اهو توكيد القيمة المعنوية ام القيمة المادية . اهو البحث عن الفضيلة ام عن المال ؟ ...

كان المثل الاعلى عند الاغارقة ان يستطيع كل فرد بحسب قدرته وكفايته ان يحقق في نفسه اكبر القيم الفنية والدينية . ان يبلغ اقصى حد ممكن من الكمال الروحي عن طريق الفن والدين .

اما اليوم فالغاية الرئيسية للحضارة ان ينصرف الفرد الى تربية كفاءته العلمية وتنمية قدرته المادية كأنما هذه القدرة وتلك الكفاءة هما في ذاتهما المثل الاعلى .

وانها في الواقع لغاية جميلة حافلة بالمغريات تلك التي تلوح بها الحضارة العلمية الحديثة . فهي تقول لنا ، تفوقوا على انفسكم وعلى الطبيعة ، اعملوا وانتجوا وتنعموا ، فليست الحياة الا متعة رائعة يقدمها اليكم العمل الذي هو رسالتكم والمجد الخليق بكم .

هذا ما تقوله حضارتنا . ولكي تساعدنا على تحقيقه نستخدم العلم ، وتجري مختلف الاصلاحات بوساطة العلم ، وتضع الانظمة الاجتماعية والاقتصادية مهتدية بالعقل اي بالعلم ايضا .

ولكن هل يكفل العلم وحده سعادتنا . وهل لا تبقى مختلف مظاهر التحضر ـ مهما تعددت ـ فراغا في نفوسنا نود لو استطعنا ملأه بشيء آخر يسمو بنا الى افق ارحب من افق هذه الدنيا ، افق تتلاقى فيه ارواحنا وتتفاهم وتتعاون وتتحاب ؟ ...

يلوح لي ان جميع الاصلاحات التي في وسعنا ان ندخلها على انظمتنا الاجتماعية والاقتصادية بوساطةالعلم لن تجعل من الانسان الا انسانا طبيعيا اي انها لن تنفعه الا في تنظيم علاقاته بالطبيعة وبالناس على اعتبار انهم اجزاء او ظواهر موزعة من تلك الطبيعة لا بد ان تسري عليهم برغم ذلك احكامها الشديدة من تنافس وتباغض وتحاسد وشقاء .

فالاصلاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي ، قد يهذب من احكام الطبيعة وقد يلطفها ويصقلها . ولكنه لن يجعل من الانسان الا حيوانا ممتازا ولن يرسم للفرد ، كوحدة مستقلة ، سبيلا واضحا الى الكمال الروحي المنشود . اذ الكمال الروحي لا يتقيد في عرفي بالتقدم المادي وانما هو جوهر ابدي كامن في نفوسنا سواء اكنا متاخرين في الرقي المادي ام متقدمين .

والواجب ان نبحث في ارواحنا ما استطعنا عن هذا الجوهر الابدي ، ان نبحث عن مظاهره فينا ، وعن قواه المشتركة بيننا وبين الآخرين .

وعلى قدر احساسنا بهذه القوى يكون اتجاهنا نحو الكمال .

ولقد ادرك الكثيرون من قبلنا هذه الحقيقة فكانوا امثلة حية من الكمال الروحي دون ان تكون لهم حضارة كحضارتنا وعلوم كعلومنا ورقي مادي كرقينا .

لقد تعهدوا بالملاحظة والتربية قواهم الابدية فازدهرت وآتت ابرك الثمرات .

ولكن ما تلك القوى الابدية ؟ ...

هي الطيبة والرحمة والمحبة والايثار والتضحية وكل ما يجعلنا نحس اننا في غير حاجة الى الانظمة والقوانين كي نقر السلام في قلوبنا والعدل والاخاء بيننا وبين الناس .

واعجب ما اعجب له ان حضارتنا تعتمد على اصلاح الانظمة والقوانين لترقيتنا ثم لا تقرن هذا الاصلاح بالدعوة الحارة ، البعيدة عن التعصب لمذهب او عقيدة ، الى تلك القوى الروحية كمجموعة عناصر مشتركة ابدية يجب ان ننتفع بالفحم والحديد والبخار والكهرباء .

ولعمري ان كتيبا سهلا بسيطا في هذا الموضوع يضعه اديب عبقري وتجمع عليه الحكومات وتقرره وتطبع منه ملايين النسخ ويلقن للصبيان والبنات في مختلف

حـلم

أحلم أن ألقاك

يا طفلي الحبيب

يا نغما لونه المحال

من صفرة الوداع والغروب

يحملني شوقي الى معارج الغيوب

فالتقيك في ذرى (آلاسكا) البيضاء

والشمس في عزتها اوهى من الشموع

ونحن في زحافة تنهل في الجليد

يشدني ساعدك الودود

خائفة : برود

مسندة : رأسي الى صدرك ، يا سماء

فلتمطري ثلجا

علـى ثلـج

علـى جليد .

أحلـم أن اراك

يا طفلي العزيز في مضارب الفجر

وحيث لا سلطان للنفاق

لا يخجل الانسان أنه من البشر

هناك ألقاك على وفاق

أرق من نسائم السحر

لا هـرة وحشية

لا زهرة الصحراء

ساقطها الندى

فلمت دونه الاوراق .

أحلم أن اراك

ولا مكان ، لا زمان ، لا خطى تريب

أنيم عيني بعينيك كما تنام

أشعة النجوم في بحيرة زرقاء

وتنقضي الايام والايام

وينطوي المساء والمساء .

بغداد — لميعة عباس عمارة

مدارس العالم ، لما يساعد عـلى تحقيق ذلـك الكمال الفردي وتلك الرابطة الانسانية اكثر الف مرة مما تساعد عليها هيئة سياسية مؤلفة من رجال ما يزال العقل فـي نظرهم اصل كل شيء والمصلحة الخاصة غاية كل شيء .

وعندي انه يجب ان تدرس للصبيان فوائد المحبـة بجوار فوائد الكهرباء . ومنافع الطيبة والرحمـة بجانب منافع الفحم والحديد ، اي يجب ان نقرن فـي نفوسهم العواطف الابدية بالمعارف وتطبيقاتها العملية . والا جاءت هذه المعارف وتطبيقاتها بعكس الفرض المنشود منهـا . فاكتسحت العواطف وردت الانسان الى وحشيته الاولى.

والحق أن العالم اليوم احوج ما يكون الـى الابديات تقرر ويعترف بها وتنظم في شكل معتقد مشترك انساني يفهمه الجميع ويشعر به الجميع .

فبالعقل والروح ، اي بالعلم واصلاحاته المبتكـرة ، وبالنفس وفضائلها الابدية يستطيع الانسان الجديـد ان يبني في فرح واطمئنان حضارة المستقبل .

هذه هي وصيتي اعلنها في العالم وانا علـى ابواب الموت ، كما الهمتها من الله الذي حاولت ان ارتبط فيـه بشعري ، فعلمني ان الارتباط الاعظم يجب ان يتم قبـل كل شيء بين الانسان واخيه في ظـل الحـق والرحمة والمحبة والحرية . »

القاهـرة — ابراهيم المصري

قصة

رسالة غير ودية

بقلم فاضل السباعي

دلفت « علياء » الى مدخل المدرسة . وأحست ، وهي ترتقي الدرجات العشر الرخامية ، بقلق صغير ينبثق في صدرها . وضغطت على المحفظة تحت ساعدها الايمن، محدثة نفسها : « انها هنا ، قد دسستها بين أوراق كتاب ! » . أجل ، فقد ضمتها في مظروف ابيض ، ثم دستها بعناية بين اوراق كتاب القراءة . واعلنت ، بينها وبين نفسها في غل ، بينا هي تجتاز الباب العلوي الى الصالة : سأنتقم منها ... لسوف ابلغها رأيي فيها ، هذه المعلمة التي لا تعدل !

دخلت قاعة الدرس . رفيقاتها متوزعات بين المقاعد . وتوجهت نحو مقعدها ، الاقرب الى الباب والملاصق للجدار ، وهي تفكر بألم : حتى مقعدي أبعد ، هذا العام ، عن منضدة المعلمة : حين منحت « سعاد » ، بنت المعلمة ، المقعد الاول المواجه للمنضدة! لماذا ؟ حطت محفظتها على المقعد . حتى تكون في وجه أمها ، في عينها : « قومي ، يا سعاد ، الى اللوح وحلي هذه المسألة !»، « كيف نكتب كلمة : ما فتىء ، يا سعاد ؟ هيا الى اللوح فاكتبيها ! » ، « عوفيت يا سعاد . أخذت في الاستظهار عشراً على عشر؟» .. سعاد ، سعاد ، سعاد ! كله سعاد !!

اتخذت مجلسها . القلق الصغير ، تحسه الان أكبر . الوجيب في صدرها يتعاظم . لكن غلها سيشفى بعد قليل ، في الدرس الاول الآتي ، في الدقائق الاولى من الدرس ! لسعاد العشرات ، ولي أنا : « عليا ، انتبهي الي ، يا عليا ! » ، « عليا ! اصمتي ، يا ثرثارة ! » ، « عليا ! قللي من حركاتك ، وكوني معي ، يا عليا ! » ، « عليا ! هل تنوين ان تكوني ، السنة ، آخر البنات ؟ » .. هذه « النية » ، التي ليست عندي ، بدأت تثمر : غدوت ، بقدرة قادر ، متأخرة في « الاملاء » ، التي ما أعرف أني نزلت فيها عن العشر ! تعطيني في امتحان أمس ، ثماني ، وتعطي — الظالمة — بنتها عشرا !؟

وتأوهت ، متمنية : آه ، يا ربي ، لم لم تجعل من امي ، والدة التسعة ، معلمة مدرسة ؟ كانت رفعت الغبن عني ! انا لا أطلب منك ، يا ربي ، ان تجعل امي معلمة كي تمنحني درجات فوق ما أستحق ، كما تفعل المعلمة مع بنتها ، ولكن لتمنع عني الظلم ، فقط ! فانا مجدة ، اعرف نفسي ، كما تعرفني أنت ، يا ربي ! كسرت لي المعلمة ، أمس درجتين في امتحان الاملاء ، على غلطتين ما عودتنا ان تعتبرهما غلطا : « انا » بدون همزة ! « اتمنى » بدون همزة ! رفعت أصبعي ، حالما تسلمت ورقتي منها :

— آنسة ، هذه ليست غلطا !

وهي لا تلتفت الي .

— آنسة خانم .. آنسة خانم ...

وهي تتابع توزيع الاوراق على البنات . ودق جرس الانصراف ولم تفرغ من التوزيع. لحقتها ، وهي في الصالة تسير مسرعة ، وصوتي الشاكي يرتعش :

— آنسة خانم .. أنا .. أخذت ثماني .. انظري ورقتي !

فردت علي في ضيق :

— اوه ، عليا ! دعيني الان .. في همي ! همها ، ابنها الذي طال مرضه !! وهمي أنا ، من يسأل عنه ؟ والتفتت ، هنا ، ابنتها الي . أفلتت يدها من يد امها ، وكرت نحوي :

— انظري ، يا عليا ، ورقتي ... أخذت عشرا !

— أريني ، سعاد .. أريني .

عشر ! يا الله ، هي ذي ، عشر ، نعم ! وأحست الغيرة نارا تحرقها . عشر ! سعاد ليست احسن مني في الاملاء . ألمت عيناي بالاسطر . هي ذي : « اتمنى » بدون همزة! ما معنى هذا ؟ و « انا » ، اين « انا » ، حتى أرى ؟ خطفت مني سعاد ورقتها ولحقت بأمها . وعدت ادراجي ، وانا لا أرى طريقي !

فكرت علياء في حقد : خطأ مظنون تكسر لي فيه درجتان ! وخطأ مماثل ، عند بنت المعلمة ، لا ينال من درجاتها العشر شيئا !!!

ثم تلمست كتاب القراءة في محفظتها ، بحثا عن ....

★

ودعت « الفت » طفلها بنظرة حزينة . وأكدت ، قبل ان تغادر البيت :

— الحبوب ، كل ساعتين حبة . لا تنس . والحقنة ، « أم سعيد » تأتيك في العاشرة . هل أطمئن ، أبا الوليد ؟

أجاب زوجها بصوت يبعث على الاطمئنان الذي تنشد ، لولا شائبة تشوبه :

— يا ستي ، أعرف مهمتي . « واجباتي المنزلية » صرت أتقنها : الحبوب ، الحقن ! الشراب ! واشياء اخرى .. شفا الله صغيرنا « وليد » ، يا « أم الوليد » ! .

ثم رأته ينعطف على الطفل في سريره ، هاتفا في حنان كبير :

— كيف حالك ، الان ، يا حبيبنا وليد ؟ (لم يجبه الوجه الشاحب بشيء) حمدا لله أني بدون عمل ، كي أبقى الى جوارك أعنى بك ، يا صغيري !

ودفعت بنتها أمامها في رفق ، محاذرة ان يلمح زوجها الدمعة التي طفرت من عينها :

— هيا ، يا سعاد . الوقت يوشك يدركنا.

وطفى عليها ، اللحظة ، حب لزوجها كبير ، حب هائل تحسه يبتلعها في اعماقه فتنعم به ، حب عظيم لا يضارعه سوىعطفها على وحيدها العليل .

وفكرت : من تراه كان حقيقا بان يعنى بابني في غيبتي عن البيت ، لو لم يكن زوجي فاقدا عمله ؟ ونزلت الدرج . أمي ؟ أين أمي ، واحسرتي ؟ وأمه ، حماتي ، عجوز غيرقادرة وغيرصابرة . لم يكن بد ، اذ ذاك ، من ممرضة .

— هاتي يدك ، يا سعاد .

وأخذت تقرع الرصيف بقدميها . ما بالها تغذ السير معجلة ؟ ان فاتها الوقت ، دقائق من الوقت ، فان المديرة والبنات أعلم بحالها . والمعلمات ، زميلاتها ، ما فتئن يسألنها عنصحة وليد ؟ تجيبهن : «بخير» ، « ان شاء الله احسن » ! ولكنه لا يكاد يتقدم . تتحسن حاله ، ثم تتردى . سألتها معلمة الصف السادس ، التي التحقت بالمدرسة حديثا ، اذ علمت :

— ومن يظل في البيت يرعاه ؟

أسرعت المديرة تجيب نيابة عنها :

— زوجها « موظف متقاعد » .

وأطلت من عيني المعلمة الجديدة نظرة ذات معنى . حسبت ، لا بد ، ان ابا الوليد متجاوز سن الستين ! فمالت المديرة الى أذنهاتهمس . فزايل العجب الوجه الجديد :

— هكذا . وأنا قلت في نفسي انها شابة لا تتجاوز الثلاثين . هو متقاعد شاب ، اذن.

بلغت ، في مسيرها ، الساحة . تشبثت بيد ابنتها ، وتلفتت يمنة ثم يسرة ، قبل ان تجتاز الشارع الوسيع . كم ضاق «الشاب» ذرعا بحياته في البيت ! كم تشكى ، وتذمر،

وجعل منها مستنزفا لنزقه !

ـ هكذا الدنيا تسير ! (يقول في مرارة) رجل كالحصان يقضي ساعات نهاره في البيت ! وزوجة شابة تسعى وتعمل في مدرسة ! (ثم يعلن في انكسار) طق عقلي ضمن اربعة جدران ، يا الفت ! تأخذين انت سعاد ووليد في الثامنة صباحا وأظل وحدي ! (ويهيب بها مترفقا) اعطيني كتبا ، يا أم الوليد ، هاتي . نزلي كل ما في « السقيفة » من كتب قديمة ومجلات ، فقد أتيت على ما في الخزانة هنا . حسن ، سأصعد الى السقيفة غدا .. (ويتجه الى أعلى) سبحانك ربي ، لو تمنحني أربعة أمثال راتبي التقاعدي الذي أتقاضاه وتقول لي : « اجلس في بيتك بلا عمل » ، لرفضت النعمة ، وفضلت الربع الضئيل مع العمل خارج البيت ! (ثم ينكفيء اليها مداعبا في مرح) أم الوليد ، أم الوليد ، ايه ، ولا يهمك ، ما دامت الصحة في اهابنا فأجدر بنا ان نكون سعداء رغم كل شيء .. سعداء .. سعداء .. (ويصفق كالسعيد ، مطلقا ضحكة عالية ، ويقوم اليها يحملها على زنديه على مشهد من سعاد ووليد !) .

كآبة وفرح ! غضب ورضى ! عبوس مقطب وضحك مجلجل احيانا !.. أحوال متناقضة تتناوبه في اللحظة الواحدة ! باتت تخشى عليه ان يجن ، ان « يطق عقله » كما يعلن على الدوام . ثم وفد مرض وليد ، فتغيرت أحواله تغيرا واضحا . وجه امامه قضية كبرى يعيش لها وقته كله : العناية بصبينا الاوحد . آه ، يا وليد ، من أين جاءتك هذه العلة ، يا حبيبي ؟ تعرضك لما يؤلم ، وتمتحن جلدنا وقوة احتمالنا . انا من جهتي ، لا أعصاب عندي . أنا مرهقة حتى العظم . أنا انسانة فقدت اتزانها . هم وغم ، وعمل في المدرسة يومي لا يفتر ، وعمل في البيت : خدمة منزلية ، ثم تصحيح أوراق التلميذات ، وظائف ومذاكرات وامتحان .. أحرى بي أن أكون « آلة » ! واستدركت : ولكنه يعمل . ولكنه يساعدني. أقول الحق : انه يساعدني . وتبسمت : الم يعمد ، أخيرا ، الى غسل الصحون في المطبخ ؟

لقد أقلع ، هذه الايام ، عن مطالعة الكتب، فقد وجد في البيت سلسلة من «الوجبات» يقضيها . ما تبقى له من الوقت يمضيه بصحبة البنات : بصحبة اوراقهن . شغلة يسيرة ، الا انها مملة في رتابتها . ولكنها ـ واعجباه ! ـ لا تبعث عنده مللا . بل انه ليهيب بها : « ام الوليد ، هاتي الاوراق أصححها . دعيني أعطي الدرجات لبنياتك . وجدت في عملك هذا سلوى ! » .

ويستضحك ، ثم يشترط عليها شرطا : « أنا ، في الليل ، لا أصحح ! » ، فان السهر عنده امام « التلفزيون » أمر يسلي ، تزجية طيبة لساعات سأم . « تتركين لي الاوراق على المنضدة هنا ، أصححها نهار غد » . لا بأس . وتبسمت في قرارة نفسها ، وهي تصعد هذا الشارع الفرعي . انه يمر على أوراق تلميذاتها الاثنتين والاربعين في « سويعة صباح » ، كما يقول .. لتستردها منه ظهرا فتحملها سعاد معها الى المدرسة .

ـ ماما . اشتري لي كعكة من هذه الكعكات الساخنة ، يا ماما !

دنت واياها من البائع الصغير :

ـ خذي لك واحدة ، يا حبيبتي .

★

أرسلت علياء ، وهي في مجلسها ، الى منضدة المعلمة نظرا خاطفا : هي ذي ، هناك ، رمتها بجوار سجل الدوام ، دون ان يدري بها احد !



فاضل السباعي

●

وفكرت والصمت مطبق على قاعة الدرس : سيشفي غلها ! ولكن .. واعتصر الحزن فؤادها : الدرجتان فقدتهما على كل حال ، خسرتهما في أول جولات هذا الامتحان ، ولسوف تخسر درجات أخرى عداهما ، فتتفوق عليها في الامتحان الاول سعاد بنت المعلمة ! و « أسامة » في البيت ، أخوها أسامة الشيطان ، لن يكف عن معاكستها كلما نالت درجة أدنى ! كانت ، مساء امس، في غم واحد ، حتى بلغت البيت . لقد حكت لاخوتها ما نالها من المعلمة من سوء . فوجدت عندهم تعاطفا طيبا . ان « منيرة » لتتذمر :

ـ يا لطيف معلمتكم ما أظلمها !

فكررت شكواها من خلال دموعها :

ـ انها لا تعدل ، لا تعدل ! ترى الكلمة في ورقتي خطأ ، وتراها في ورقة بنتها صحيحة !

وقرر « ودود » الصغير بادي الحزن :

ـ معلمتك ، يا دادا .. لن تدخل الجنة !

وهتفت « سميرة » في ارتياح :

ـ الحمد لله ان بنت معلمتي كبيرة ، في الصف السادس !

ولكن اسامة الشيطان ينصرف ، في اثناء ذلك ، الى محفظته ينقب فيها . قرأت ، في بادىء الامر ، في عينيه شماتة صامتة لم يعلنها لسانه ، وقد كان خليقا به ان يطلقها عاليا وهو « أشطن » شياطين البيت ! تحب اخوتها الثمانية ، عداه ، هذا القوي السفيه الذي يشتمها ويعبث بها ويسومها العذاب . انها تحدث رفيقاتها عنه ، فترثي رفيقاتها لحالها . بتن ، في المدرسة ، يعرفن أخباره وحكاياه . تود لو تشكوه الى أبيها ، ولكن أباها قلما يكون في البيت حين يوقع أسامة عليها الاذى . تشكوه الى أمها ، ولكن أمها مشغوفة باخوتها الصغار ، وانها لترد عليها في ضيق : « اتركيني ، يا عليا ، اما ترين شغلي ؟ تسعة اولاد في رقبتي ! » . فاذا أقبلت عليها ، مرة ، باكية من صنيع الشيطان بها ، اكتفت بان ترفع عقيرتها : « أسامة ، يا شيطان ! يا عفريت ! دع عليا وشانها ! » ، فلا يزيد هذا « التقريع » الشيطان الا تماديا ، انه يقول في همس : « أوم ! ماما ما قالت لي أي شيء ! أوخ » . تتمنى لو انها « صبي » ، اذن لكان في وسعها ان تقدر عليه ، على الرغم من انه يكبرها بعام . تكرهه . تحب سائر أخوتها ، وتكرهه . يسميها « الخنفسة » ! لا يناديها الا بالخنفسة ! ان شاء الله يموت ، لن تحزن عليه مقدار ذرة !

وأدارت في وجوه البنات نظرا .

أسامة أخرج من محفظته ورقة ، هي ورقة امتحان الاملاء الذي أجري في يومه الماضي . قال لها :

ـ لتنظر عيناك ، اذن ، يا خنفسة خانم ، الى ما حصلت عليه من الـ ...

قرأت . انها عشر !

أعلنت في حزن :

ـ وأنا .. لو كانت المعلمة أنصفتني ، لكنت أخذت عشرا !

فتصدى لها بوقاحته التي تعرف :

ـ انصفتك ما انصفتك .. انت ثماني وانا عشر .. انت ثماني وانا عشر .. انت ثما ...

اخذ يكررها .. فاذا هي ذات « نغم » ! واذا النغم ينقلب بين شدقيه الى « اغنية » واذا الاغنية تصاحب بتصفيق من يديه يصم الاذن ! ثم اخذ يرقص ، امام عينيها ، رقص وحوش الغابة !! وتكاد هي تنشق من الغيظ ، وقد تمثلته شيطانا حقيقيا هذه المرة ، وتمنت لو تنشب اظافرها في قلب عينيه !

قامت باكية الى أمها .. فوجدت على ثديها خلدون الصغير يرضع ، مطبقا جفنيه. وبدلا من ان تاخذ امها بناصرها ، صرخت بها :

ـ ايقظت الصبي ، الله يهدك ، أيقظته وانا طلعت روحي في تنويمه ! (ثم نادت) اسامة ، دع أختك ، وانصرف الى دروسك ، يا رذيل ! الله يغضب عليك ، آلهي وسيدي! والله لاشكونك الى أبيك ، انتظر !

والى متى الانتظار ؟ وماذا في وسع أبيها أن يفعل ؟ يضربه ، ان فعل . ولكن من ذا الذي يسمعه ان يرفع عنها حيفا وضعته على كتفيها معلمتها : أم سعاد ؟!

بكت طويلا ...

وعاودها البكاء ساعة أوت الى فراشها . غم ، ثم غم آخر : المعلمة في المدرسة ، وأخوها في البيت ! لم يكف الشيطان عن تعذيبها طوال السهرة . حتى اذا كف ، لم يكن لذلك « النغم » الكريه ان يزايل خاطرها ! نغم أخذ يضرب في رأسها ، يضرب وسط عالم مشوش يتراءى لها .. انقلب النغم الى ضرب متواتر على طبل كبير .. وجدت نفسها في غابة .. ورأت متوحشين يدقون الطبول ، يقرعونها بجنون ، فيتردد في أرجاء الغابة ذلك النغم! ورأت وحشا ، في صورة اسد ، يرقص على قرع الطبول ... كانت تعتلي شجرة تطل منها على الوحش في رقصه .. لم تحس في صدرها خوفا أي خوف، ما أحسته كان حقدا، حقدا كبيرا ، أخذ ينمو في داخلها وينمو ، والوحش يتابع الرقص على قرع الطبول ... انتزعت من الشجرة التي تعتليها غصنا ... استلته ... نزلت به الى حيث الوحش يرقص ، فاقعى امامها راكعا .. همت بضربه بما في يدها ، فازداد الوحش خنوعا : « أنا عبدك الطيع » ! ... ولكنها أهوت عليه بالغصن .. فاذا الغصن في يدها يستحيل الى سيف يقطع رأس الوحش فيتدحرج بين قدميها ! واذا هو رأس ... أسامة أخيها !! يقول معاتبا : «هكذا ، يا عليا ، تقتلينني؟!»

وتنهار فوقه تنتحب بصوت قد انطفأ في حلقها ، فهي ـ حتى هي ـ لا تسمعه ..

وتفيق من نومها مذعورة :

وجافاها ، من ساعتها ، النوم . ظلت في فراشها ترتعد من الخوف ، وقد تراءى لها انها اذنبت تجاه أخيها اذ انهالت عليه بالغصن ، بالسيف ! واستدركت : ولكن الذنب ، آه ، يا ربي ! انه ذنب المعلمة التي لا تعدل . قتلت أخي في المنام ! ليت المقتول .. ابنها العليل ! فأخي لم يظلمني في المدرسة ، وان سامني العذاب في البيت . وخطر لها ، مع اطلالة الشمس من شباك غرفتها : ماذا لو كتبت الى المعلمة رسالة ؟ رسالة تعبر عن رأيي فيها ، أضعها في صندوق البريد ؟ أقول في مستهلها : «انا لا احبك يا آنسة . انا (تكتبها بدون همزة !) انا اكرهك كثيرا » .

راقت لها الفكرة . نعم ، ماذا لو كتبت الى معلمتها رسالة ؟ تقول فيها : « بنات الصف يكرهنك . كلهن يكرهنك مثلي » ، بل انهن يكرهنها أكثر منها ! « قتلت اخي من اجلك .. انت بتحبي بنتك سعاد وما بتحبينا » ...

هي ذي الجمل تتوارد على لسانها . هرعت الى ورقة تدون فيها الكلمات قبل ان تضيع. « تعطي بنتك العشرات في الاملاء ، وتعطينا تسعات وثمانيات وخمسات و ... » ...

« قتلت اخي اسامة من اجلك » ! وعاودها الاحساس بالندم ، فخطت يدها : « انشاء الله ما يشفى ، انشاء الله ما يطيب »! لقد انتقمت . وثنت الورقة . ثم تلبثت لحظة : لم يشف غلها . اختتمت الرسالة : « ابنك المريض انشاء الله يموت » ... أحست راحة اكبر . وضمتها في مظروف أبيض .

صحت علياء من خواطرها . وأرسلت ، من جديد ، نظرة خاطفة الى منضدة المعلمة . الرسالة هناك . ستقرؤها المعلمة فور دخولها . لم ترسلها اليها بالبريد . ذلك طريق طويل . ولكن .. واستشعرت في داخلها خوفا : ألم تكن الرسالة قاسية ؟ تبا لها ! انها لقاسية . لم أضافت العبارة الاخيرة ؟ وتعاظم الوجيب في صدرها .

أطلت المديرة من باب الصف :

ـ ألم تات الفت خانم ؟

ابتهلت ، وهي في مكمنها : يا ربي ، ليت المديرة لا تلتفت الى المنضدة !

أجابت العريفة :

ـ كلا ، آنسة .

عادت تتساءل ، في ندم عظيم : لم كتبت الرسالة ؟ حين كانت المديرة تغيب وراء الباب . هل تكره البنات المعلمة ، حقا ؟ هل أكرهها أنا ؟ انني احبها .. والله احبها . فهي احلى معلمات المدرسة . ليتني استطيع استرداد رسالتي اللعينة . تعذيب أسامة هو الذي ساقني الى كتابتها ، والمنام الاسود ! المعلمة تحب ابنتها ، وما في ذلك ؟ لو ان امي معلمة الصف لاحبتني دون البنات . وما في ذلك ؟ ولكن أمي ، واحسرتاه ، تهملني ! والمعلمة تظلمني : همزتان بدرجتين ! وبنتها تأخذ العشرة كاملة . لماذا ؟ لماذا ؟

★

رنت الفت ، من بعيد ، الى باب المدرسة الحديدي الكبير : هوذا يفغر فاه لابتلاعها طوال ساعات اربع صباحية ! وفكرت : ما أقسى بعد الام عن بنتها عندما يكون طفلها ، وحيدها ، طريح الفراش ؟ يعنى به . أبوه يعنى به . كل ساعتين حبة . وأم سعيد ، الممرضة ، تعطيه الحقنة في الساعة العاشرة » . « مهمتي في البيت صرت أتقنها » . يا له من زوج عطوف ! تحبه . يهتم بها وبولديه . يحرص على ان يأخذ نصيبه من المسئولية كاملا . ويأخذ ، منذ أمسى بلا عمل ، اكثر من نصيبه ، طائعا مختارا . هو الان ، او بعد قليل ... وتبسمت بسعادة ، مكب على أوراق الحساب يصححها . انه ليقرأ : باع فلاح ٩٧ بيضة ، سعر البيضة .... هذه المسالة عليها أربع درجات . تستحق منها ، هذه الورقة ثلاثا ، أو درجتين ونصف فقط . دقيق في تقديره . بل ان يده اميل الى الشدة ! هل تراه يظلم لها ، في هذا العام ، تلميذاتها ؟ لا بأس ، ما دام يزن أمورهن جميعا في ميزان واحد . المساواة في الظلم عدل . دقيق ونشيط . اوراق الامس تتسلمها منه في ظهيرة اليوم ، مع جداول الدرجات ، معدة للتوزيع ... لا تحتاج الى غير قلمها الاحمر ، تمر به عليها ورقة ورقة ، لتمهرها بتوقيعها !

وابتلعها الباب الكبير . انها لتشفق عليه من التعب . ولكنه ، العزيز ، ما يفتأ يعلن : « يا ستي ، اقول لك هذا عمل يسليني ، ما دمت أؤديه في النهار ... انه لعمل يسليني ! » .

وصعدت الدرج ، والى جوارها بنتها . يسليه ، هكذا يقول . ولكنها تجد نفسها ، رغم كل شيء ، مندفعة الى مشاركته التصحيح . اوراق الاملاء ، التي وزعتها يوم أمس ، لم تدعه يصححها وحده . لقد حرصت على ان تصحح نصفها في تلك الليلة ، واكمل هو النصف الاخر في ضحى اليوم التالي . وكان من حظها ان مرت بها

ورقة ... سعاد . وفكرت : لا بد ان شدته قد نالت من « حقوق » نصف البنات ، واستنفدت هي كامل حقوق النصف الاخر ! بعضهن شكون اليها ، امس ، اجحافا في تقدير درجات الاملاء ! ثلاث تلميذات او اربع . أوه ، حقهن عليها . كان الاولى ان تصحح هي الاوراق كلها ، او تدعه هو يصححها كلها . من الخير ان توزن امورهن بيد واحدة .

واجهتها ، في الصالة ، ساعة الجدار الكبيرة : لقد تأخرت دقائق سبعا . وأعجلت خطاها عبر الصالة نحو صفها . لا جلبة تصدر عن تلميذاتها . عاقلات ، يقدرن دواعي تأخرها .

ولامس سمعها نداء ترسله المديرة خلفها :

— سعاد ، سعاد !

لحظة كانت تجتاز ، هي ، الباب في دخولها قاعة الدرس .

ارتفع صوت العريفة :

— قيام .

وأشارت لهن بالجلوس .

★

سألت المديرة :

— كيف حال اخيك وليد ، اليوم ؟

أجابت سعاد :

— أحسن قليلا .

— عليه العافية .

— الله يعافيك ، آنسة .

وتراجعت سعاد الى الوراء خطوتين . ثم استدارت ، وهرعت الى قاعة الدرس .

نظرت علياء الى بنت المعلمة في دخولها القاعة بعد امها . كان الترقب قد ملأ فؤادها خوفا . وفكرت : سعاد أخت وليد . وهي ، في الصباح تمنت الموت لوليد ! آه ، كم كانت قاسية ! ان سعاد بنت صالحة . وأمها معلمة طيبة . آه ، يا ربي ، ماذا جنيت ؟ المعلمة تخلع معطفها ، هي ذي ، لم يئن لها ان تقع عينها على الرسالة اللعينة . اخوها هو السبب . عذبها ليلة الامس ، فاندفعت تخط هذه الرسالة الحمقاء . ليت الارض تنشق .. ليت المنضدة تنشق وتبتلع الرسالة . يا ربي ، ماذا فعلت يدي ؟ ان المعلمة تقلب الرسالة في يدها ! وامتلأ قلبها ، من جديد رعبا اسود .

عجبت المعلمة من أمر المظروف الملقى على المنضدة . وجدته مغلقا ، وغفلا من العنوان . ففضته بفضول .

علياء ترقب صنيع المعلمة . سلت المعلمة من داخل المظروف ورقة . التلميذات معلقات الابصار في المعلمة ، وهي تقرأ شيئا ما في يدها . علياء تحس هوة في داخلها تنفتح . محيا المعلمة الجميل يعبس . الهوة في داخل علياء تتسع . والعبوس ينتشر في المحيا الجميل .

رمت المعلمة الرسالة في غضب . وخبطت بقبضتها المنضدة ، صائحة بصوت لم تألفه هي نفسها من قبل :

— من منكن كتبت هذا الكلام !؟

لا جواب . صمت غائر ابتلع قاعة الدرس ومن فيها .

— اية لعينة فعلت هذا ؟!

سعاد ، بنت المعلمة، رأت الغضب يشتعل في وجه امها ، فخشيت عليها من فرط الغضب ، وأوشكت ان تبكي خوفا عليها .

وعلياء ، هي أيضا ، خشيت على المعلمة ، ولكنها خافت على نفسها كذلك . لقد أوشكت ان تعلن ..

المعلمة تصيح في هياج :

— من القبيحة التي كتبت هذا الكلام القبيح ؟ لتعترف من تلقاء نفسها ، والا عاقبتها اشنع عقاب !

اوشكت علياء ان تعلن : انا .. انا .. يا آنسة .. انا اخطأت .. اغفري لي ..

المعلمة تتابع صياحها :

— أقول : لتعترف ، ذلك خير لها ، والا اخرجتها من مقعدها جرا .. وشددتها من شعرها ، كالكلبة الجرباء ، الى غرفة المديرة ! يمكنني أن اعرفها من نظرة واحدة !

خاطبت علياء نفسها في فرق عظيم :

يا ربي ! لماذا فعلت ذلك ؟ آه ، انها ستعرفني ؟ هل اعترف ؟ والهوة في داخلها امست ، الآن ، هاوية !

أخذت المعلمة الرسالة بعصبية ، تمر عليها شواظ عينيها . وتوقفت :

— من منكن لها اخ اسمه .. أسامة ؟

وأيقنت علياء انها ساقطة في الهاوية ، لا محالة .

ارتفع ، من وراء ، صوتان او اكثر :

— آنسة ، لعليا أخ ... لعليا أخ اسمه أسامة .. عليا .. عليا .. عليا ..

سقطت علياء في الهاوية .

اتجهت اليها المعلمة :

— اذن ، فانت ؟!!

— ... ...

— أنت ! أنت ! وجهك اللئيم يدل !

فتحت علياء فمها :

— انه أخي .. هو ال ..

المعلمة خرجت عن طورها :

— ابني ... ان شاء الله ما يشفى ؟؟

— اسامة .. هو ال ..

— ان شاء الله ما يطيب ؟؟

— ... ...

— وحيدي وليد ان شاء الله يم ... ؟؟

— ... ...

— تموتين أنت ، يا لئيمة !

اطل ، هنا ، على القاعة ، وجه المديرة . تلفتت البنات اليه ، وراء الزجاج ، في ذعر . وعلياء لمحته ايضا ، ولكنها لم تتبينه تماما . لقد غامت الدنيا في عينيها ، وثقل رأسها ثم .. سقط الى الخلف !

المديرة تسأل بصوت اجتهدت ان تجعله خفيضا :

— ما الخبر ، يا الفت خانم ؟

اتجهت المعلمة بنظرها اليها :

— آه ! (وارتجف صوتها) أعلمهن وأشقى ، لتكتب الي احداهن .. (وأحست في جسمها اعياء) رسالة تلقيها على المنضدة هنا .. تتمنى فيها الموت .. لطفلي العليل !

قالت المديرة :

— هدئي اعصابك ، يا الفت خانم . من التي فعلت ؟

لم تجب المعلمة . كان الاعياء قد سرى في جسمها كله . حين كانت البنات يجبن على سؤال المديرة :

— انها عليا ، يا آنسة .. عليا .. عليا ..

ادارت المديرة عينيها صوب علياء ، فوجدتها .. وجدت رأسها ملقى الى خلف ، مستندا الى الجدار ، وقد كسا وجهها شحوب اصفر . فما كان منها الا ان أشارت الى احداهن معجلة :

— نادي الآذنة ، هيا ، هيا !

وصدرت عن تلميذات الصف همسات ، تعالت ، ثم انقلبت الى صرخات خوف صغيرة :

— أغمي عليها .. عليا .. أغمي عليها ..

والمعلمة ، هناك ... تهالكت على الكرسي ، وقد غسل وجهها فيض من دمع . انها تشهق وتقول :

— ليتني أموت .. ليتني أموت واستريح !

ثم سقط رأسها ، هي الاخرى ، على المنضدة ، وقد غامت الدنيا في عينيها .

دمشق — فاضل السباعي

الدار داري

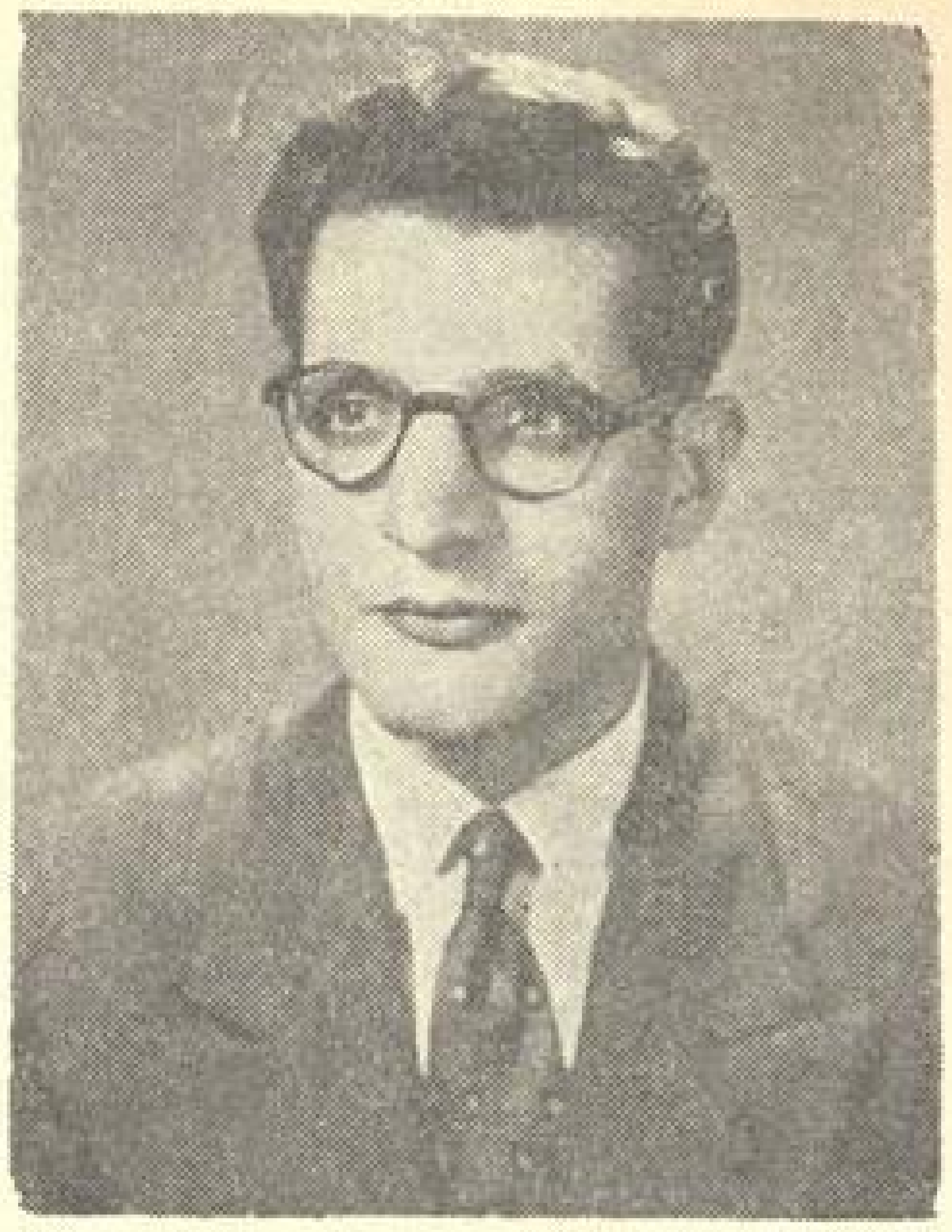
الدار في «صفد» تشكو أذى النوب ... وأنت صب تقاسي البعد في حلب
ماذا عليك اذا مازرتها سحرا ... ونجمة الصبح عنها بعد لم تغب
يا هاتف الشوق قد ناديت مستمعا ... أصغي اليك بقلب واجف تعب
ها قد غدوت لاوطاني على قدمي ... والوجد قرح أجفاني وبرح بي
حتى تسنمت من « كنعان » قمته ... ولاح من « صفد » وجه لمرتقب
سلكت فيها دروبا ما عهدت لها ... من قبل رسما بيفع كان أو صبب
وشمت فيها وجوها ما رأيت بها ... وجها لاهل وجيران وذي نسب
فخلت أني غريب في مسالكها ... وبت حيران في أمري على عجب
فجئت عجلان باب الدار أطرقه ... طرق الذي آب من منأى ومغترب
اذا بعلج قبيح جاء يفتح لي ... كأنه من بني الشيطان في سبب
أكث ذو لحية شمطاء تحسبها ... من ثعلب نزعت لكن من الذنب
وسالفاه ذنا بي عقرب فهما ... رمزان للغدر والتزييف والكذب
ترى بعينيه عيني ماكر جشع ... لص خبير بسلب المال والذهب
وأنفه الضخم يبدو وهو منتفخ ... كأنه اشتم ريح الكسب عن كثب
فقال : من انت يا هذا ؟ فقلت له ... من ذا يخاطبني ؟ ما أنت من نسبي
الدار داري لماذا أنت تسكنها ؟ ... من أنت؟ قل لي فقد اكثرت من عجبي
فقال لي باسما ما أنت صاحبها ... لكن صاحبها من فاز بالغلب
ادخل وزرها وعد من حيث جئت ولا ... تطلب محالا اذا الحفت في الطلب
دخلتها فاذا بي في حديقتها ... قد خلت أني عنها قط لم أغب
فتلك داليتي تزهو بنضرتها ... قد أثقلتها عناقيد من العنب
وتلك تفاحتي يا حسن منظرها ... تميس بالحمل من تيه ومن عجب
أقدمت أقطف عنقودا فعارضني ... فقال : تفاحة قال : اقتصر وخب
رجعت عنها كئيب النفس منكسرا ... والغرس غرسي يا ويلي وغرس أبي

ولست أنسى بوسط الدار «فستقة» ... حبيتها ويكاد الدمع يشرق بي
بقرب زيتونة كانت تظللني ... قبل النزوح وحر الشمس في لهب
من عهد جدي في داري لقد شمخت ... فروعها وغدت تسمو الى الشهب
وقرب رمانة اغصانها ازدهرت ... بالجلنار كأقداح من الذهب
والنحل يجني جناه من أزاهرها ... وينثني للخلايا بالغ الارب
حتى أتيت الى بيتي أطوف به ... يا هول ما أبصرت عيناي من عجب
فهذه حجراتي قد غدت سكنا ... للطامعين بفعل المكر والكذب
أسرتي ومتاع البيت أجمعه ... وما ورثت عن الآباء من نشب
أضحى كأن لم يكن ملكي حظيت به ... يوما وملك أبي في سالف الحقب

وقال غاصب داري اذ يودعني ... عد كل عام وزرها غير مكتئب
لا تبتئس ان اسرائيل باقية ... في هذه الارض من كنعان للنقب
وسوف تملك من نهر الفرات الى ... قناة مصر بحق القهر والغلب
فقلت والغيظ تغلي بي مراجله ... خسئت من غاصب في ظل مغتصب
لن يستقر بأرض العرب ذو طمع ... وفي دماء بنيها نخوة العرب
فانظر لنفسك جحرا أنت تسكنه ... فقد دنا الصبح يجلو ظلمة الريب
الله اكبر فارتجت مفاصله ... وكاد يسقط من خور ومن رعب
وراح يغلق دوني الباب مرتعدا ... ورحت انهض من نومي على غضب

حلب

محي الدين الحاج عيسى



الدكتور محمـد رجب البيومي

الغجر شعب المرح والموسيقى والسحر

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

تفد على القرى في فترات متباعدة قوافل متنقلة . تطلق ماشيتها ودوابها . وتنصب خيامها الساذجة ، وتهيء طعامها على الطريقة البدائية ثـم تطلق عقائرها بالغناء . وتجعل من الرقص والتصفيق ملهاة دائمة لا تكاد تنقطع ، وكثيرا ما يلجأ رجالها الى الحقول فيختلطون بالفلاحين ثم يرجعون بما يثقل اكفهم وظهورهم مـن الخير والاحسان بعد سمر طائب ، وتفكه جميل ! امـا النساء فيتسللن متفرقات الى الاكواخ المتواضعـة والمنازل الصغيـرة ، « فيضربن » الرمل ، « ويقران » الفنجان ، وقـد يقمن بختان الفتيات ودق الوشم على الاذرع والسيقان ، ولهن لهجة غريبة تميل اليها الآذان ، لا لرخامة صوت او نعامة جرس ، بل لما توحي به من غموض فـي الفاظها المبهمة ، ومعانيها المحيرة . وسرعتها المتدفقة كأنها شلال يهدر . ثم لما تنطق به ملامح القائلة من ثقة جازمة ، وايمان عمق . . . هؤلاء هم الغجر الذين لا يخلو منهم قطر في الشرق والغرب على السواء .

والغجر في اوروبا وآسيا وافريقيا ليسوا على نظام واحد في العادات واللغة والديـن والتقاليد . فمنهم المتحضر الذي جذبته مدينة القرن العشرين ، فنقلته مـن بداوته الساذجة الى مستوى مشرف مقبول ومنهم البدائي الذي لا يزال يتخبط فـي نزواته وجمحاته . دون ان يعصمه عقل راجح . لذلك نجد اختلافا كبيرا فيما يكتبه الاوروبيون عن هؤلاء . فقد نجد كاتبا يسرد من مشاهداته وتجاربه ما يناقض حديث كاتب آخـر شاهد وجرب وعلل ، والسبب في ذلك واضح اذ ان كليهما يروي مـا شاهد ولابس . فمن رأى الغجر في اسبانيـا مثلا دون مشاهدات مشرفة . ومن رآهم في المجر تحدث عـن اكثرهم حديث المستهزىء الساخر ، الا ان الـذي لا شك فيه انهم صائرون لا محالة الى الرقي والتحضر في وقت قد يقصر او يطول ، والراجح ان الغجر – ويقال لهم النور أيضا – قدموا الى اوروبا من اواسط آسيا . ومن الهند بالتحديد ، وقد روى ابن الاثير خبرا يستفاد منه انهـم (الزط) الذين اوقدوا نار الفتنة في البصرة على عهـد المعتصم العباسي فحاربهم وتتبعهم ، ونفى منهم نحـو ثلاثين الفا بين رجل وامراة وصبي الى قرية مـن قرى الثغور المتاخمة للعدو ليكونوا في الخطوط الاولى للدفاع ، وقد أغار الروم عليهـم واسروهم جميعـا ، فتفرقوا في اوروبا .

هذه الرواية الشرقية ، تجد مـا يظاهرها فـي الروايات الغربية . ولا يهمنا ان نتتبـع التطور التاريخي لهؤلاء القوم ، بل نسجل ظواهر ملموسة لديهم في كـل زمان ومكان . فهم – شرقيون وغربيون – لا يعترفـون بالحدود الجغرافية . ويموجون فـي كـل رقعة تنبسط امامهم ولا يهمهم ان تختلف عليهـم مناطـق الحرارة والبرودة ، والخصب والجدب ، او تباعدهم عن جيرانهم فوارق التقاليد والمثل . ما داموا طوائف يأنس بعضهم الى بعض ، ويقتسمون الرزية والفرحة معا ، وقـد تعرضوا في تاريخهم الاليم الـى اضطهادات متتابعـة . فقررت فرنسا وبعض دول أوروبا نفيهم وتشريدهم مـع التنكيل بمن يتخلف حرقا وغرقا وذبحا . ونحـن نعذرهم الآن اذا اتخذوا لانفسهم الحيطة فتربصوا الشر مـن الناس ، فدماؤهم المتوارثة . تحمل في عناصرها ما كابده الاسلاف من ظلم واضطهاد ، اضف الى ذلك انهم كانوا حربا على انفسهم في بعض الاحايين ، فكانوا اذا نزلوا بلـدة – ولا يزالون كذلك – يخطفون ما تقع أيديهم عليه مـن دجاج وطير ونبات وسبب ذلك اختلاف وجهات النظر بينهـم وبين الناس ، فأكثر طوائف الغجـر لا تعترف بالملكية الفردية ، وترى الخير في الوجود نهبا مشتركا بين الافراد ، فاذا مد أحدهم يده الى ممتلكات غيره فـلا يرى فـي اعتقاده حرجا يكفه عن السطو والاستلاب ! ولقد بدد تطور الزمن هذه المعتقدات مـن نفوسهم فأصبحوا يؤثـرون الحيطة ، ولا يسطون على شيء مجاهرة ، بـل ينتهزون الغفلة السانحة ، فاذا لم تتهيـأ الفرصة للسرقة آثروا القناعة بالكفاف ، وروح السلب والنهب هذه هي التـي جعلت الناس يضربون بهم المثل فيقولون لسيىء المعاملة « نوري » .

وقد لجأوا الى الحرف المتواضعة فهم يحذقون صنع السلال والقلل والسكاكين والاجراس ، وكثيرا ما تكون المواد الاولية لصنع الخيام والاواني البدائية وتجارة الماشية أبوابا مشروعة للرزق ، الا انهم – رجالا ونساء – يحترفون التنجيم والعرافة احترافا عجيبا ، فالفجرية التي تقرأ الكف لم تنل حظا قليلا او كثيرا من المعرفة ، ولكنها ذات فراسة فطرية تتغلغل بها الى الاعماق ، فهي تتقدم الى زائرها في شجاعة ويقين ، ثم تندمج معه في حديث متشعب ، توقظ له منافذ تفكيرها . فتفهم من دخائله واسراره ما يمدها بنصيب وافر من التخرصات المعشوقة ، فتظل تنسج له آمالا عذبة ، وتخدره من همومه تخديرا لذيذا يفقد به حرصه فيناولها الاجر السخي ، ويحرص على التردد عليها كلما حز به امر ، او تطلع الى مستقبل مجهول ، وعلماء النفس في اوروبا الذين شاهدوا هؤلاء المنجمات ودرسوا اتجاهاتهن في التأويل والتحليل يبدون دهشة فائقة لما يلمسونه لديهم من براعة وزكانة ، ويعجبون للفطرة الساذجة كيف تمنح اصحابها هذا النظر الصائب دون دراسة وتثقيف .

وبعض الكتاب يجمعون نوادر النور الشاذة ثم يصدر حكمه على الجميع وفق ما جمع وتتبع ، ونحن نرى في تسجيل ذلك شططا بالغا ، اذ ان النور يدينون بدين جيرانهم في الاعم الاغلب فلا بد ان يعصمهم الدين من الحيوانية الساقطة او لعل ذلك كان منذ قرون متباعدة لدى فريق منحرف يمثل الاستثناء النادر ، ولا يمثل القاعدة الكلية لدى هؤلاء ، وفوق ذلك فللقوم عادات متوارثة لدى الزواج والطلاق ، وتأصل هذه العادات المتوارثة يعصم من الشذوذ الرهيب !

وبمقارنة هذه العادات بغيرها ، يتضح لنا شبه كبير بين مسلك هؤلاء ومسلك الزنوج وبعض قبائل الهنود الحمر أيضا ، ففي انجلترا تتقدم الفتاة النورية الى الفتى الذي تختاره زوجا لها ، وتقدم له خيطا أحمر ، او تدفع نحوه كعكة لذيذة ، او تقدم اليه حلية ذهبية ، ولا تفعل ذلك الا اذا ذهبت الى كاهنة محترفة فكشفت عن طالعها ، واكدت لها صحة الزواج ورفاهيته ، وللفتى أيضا ان يبدأ بخطبة الفتاة ، فيعلن اليها رغبته بأن يضع في سترته منديلين أحمرين ، ويتقدم نحوها ، فاذا اخذت احدهما ، فقد اختارته ، واذا فرت من وجهه وارسلت شعرها المسترسل على وجهها فقد رفضته ، وانت تلحظ من ذلك ما تتمتع به المرأة من حرية وانطلاق ، فهي في اكثر الحالات تختار من تريد كما تريد ، فاذا وقع عليها الاختيار دون ان تتقدم به ، فهي صاحبة الامر المطلق في الرفض والقبول ، ومن الطريف أن الخطيبة تشك اصبعها بابرة ليتساقط دمها على الارض ثم تجمع التراب الممتزج به ، وتقذفه الى النهر ، فيكون كفيلا بدوام السعادة ويمنع ما قد تجيء به الايام للزوجين السعيدين من شرور وأهوال ، واذا نسيت احداهن ان تفعل ذلك ، فهي تترقب الشر في كل يوم وليلة ، فاذا حدث – ولا بد ان يتكدر الصفو يوما ما – فاللعنة كل اللعنة لهذه اللحظة المنكودة التي نسيت فيها ان تشك اصبعها بالابرة ! لحظة الخطبة في أسعد الاوقات .

أما ما يحدث لدى الوفاة فهو أعجب وامتع ، فاذا مات انسان ما في خيمته فلا بد ان يشق جانب منها لتخرج منه الجثة دون غيره ، فلا تعود روحه فزعة مرة اخرى كما لو خرجت الجثة من الباب المعهود ، واذا تعجل أحدهم الامر ، ومر بالجثة دون شق جديد فان القلق النفسي يزلزل الاعصاب زلزلة أليمة ، فيتصور أصحاب الخيمة اشباحا تتحرك ، وطيوفا تروح وتجيء ، ثم تغمرهم الاحلام بأهاويل مفزعة فيذهبون الى المقبرة ثانية ، وينتزعون الجثة لتخرج من شق جديد !.

وقد كان حرق الجثة عملا شائعا يوم ان قدم هؤلاء من الهند ونقلوه في اوساط مختلفة تأثر بها اكثر المدنيين الا انهم الآن يدفنون موتاهم في قبور محترمة تكلل بالزهور والورود . ويتناوب القوم حراستها في ايامها الاولى لتأتنس الروح في المثوى الجديد ، والغريب حقا ان أهل الميت يجمعون بعد وفاته كل ما خلفه من اموال ومتاع ويقومون بحرقه واتلافه ليسبقه الى الدار الآخرة فيتمتع به هناك ، وهنا تطفح الخسائر الباهظة الى حد مستغرب ، اذ ان بعض هؤلاء وبخاصة تجار الخيول والعربات اثرياء موسرون ، فاذا قام أقرباؤهم باتلاف ما يملكون فلا تسل عن الثروات الضائعة ، والكنوز المبددة أدراج الرياح ، واذا كان الفجري في المجر او انجلترا او النمسا متوسط الحال او رقيقة فالخسارة بعده محتملة، ولكن ما ظنك بالفجري الاسباني المتحضر وهو يمتلك الضياع والقصور ، وقد نشرت بعض الصحف الاجنبية صورا مؤسفة لعربات فاخرة تحترق او تهشم قبل الاحراق كما تهشم قلة من الخزف او قدر من النحاس ، وقد لا يكون الامر في ذلك شائعا لدى الجميع ، ولكنه ظاهرة غريبة تتطلب التسجيل .

وللنور فنونهم الجميلة ، تتضح فيما يصنعونه من الاواني الخزفية ، والاجراس الحديدية ، والصور الدينية للعذراء والمسيح ، اما الرقص والموسيقى والغناء فقد أصبح كل اولئك مجال دراسة فنية لكثيرين من عشاق الالحان ، بل ان موسيقيي المجر يحرصون على استلهام الموسيقى النورية ، واتخاذها مصدرا للابتكار والمحاكاة ، ولولا ما يبديه الفجري من الصخب والضجيج – كالزنجي – لاستطاع ان يمتع الاسماع بألحان مشجية ذات تأثير وتعبير .

على ان الذكاء الخارق الذي يتميز به المنجمون والعرافون من هؤلاء قد فاق كل اعتبار ، ولهم حيلهم الباهرة في التخفي والتستر عند اجتياز الحدود بين

اخيلة مجنحة

يناجيني ليلا خيال التي اهوى ... فما اطيب اللقيا وما أعذب النجوى
وما اجمل الاطياف في حلك الدجى ... تزحزحن عن روح مجرحة رضوى
أعيدي ايا اخت الثريا زيارتي ... ففيها كما تدرين يا «منيتي» سلوى
عديني – فبعد الدرب ليس بمانع ... ففي ملتقى الروحين ما خفف البلوى
اهف الى رؤيا خيالك انه ... منى مهجتي الاولى وغايتها القصوى
خلا البيت من أنس يرف جناحه ... شكوت وما في الحي من يسمع الشكوى
أنادي – انادي والصدى يقرع الصدى ... وصمت كأن البعث يعقبه – دوا!
يقولون صبرا يا فتى بلغ الزبى ... مسيل قريح الجفن قلت لهم عفوا
أاسلو التي شقت لروحي خلودها ... والحقبة الخمسين قارورة السلوى
وحق السما ان الوفاء فضيلة ... تخلد ما بين الضلوع لها مثوى
أحن الى يوم يلملم عقدنا ... فينتظم المنثور في سلك من اهوى

واها لايامها ما كان اطيبها ... ضما وشما وتقبيلا وانفاسا
كانها العرف في وسنى بنفسجة ... بالطيب عبقت النسرين والآسا
فزهزه الروض وامتدت ارائكه ... والطير يرقص جذلانا وايناسا
يا نعمة الله – ما قولي مبالغة – ... محياك فجر الهاما واقداسا
اسطورة المثل العليا لقاصدها ... اقنوم من غاث ملهوفا ومن آسا
تظل آثارها انجيل قافيتي ... وذكرها لسراة الليل نبراسا

هذي منازل من احببت مذ صغري ... يا ليتها لم تزل فيهن في كبري
نمشي سواسية والكف مشتبك ... بكفها في ظلال البان والحور
نحدو فتانس في روض حمائمه ... وتتلع العنق تستجلي عن الخبر
حيث الاماني والاحلام تغمرنا ... في مطلع الشمس او في مطلع القمر
نروي احاديث ماض بعضه غصص ... وجله يرتوي بالخير العطر
وفي الليالي «ثريانا» تنورني ... كانها شمعة في بؤبؤ النظر
كالعاشقين نطوف الارض في مرح ... لا هم لا غم في حل وفي سفر
سقيا لهاتيكم الايام كيف مضت ... لهفي بدت حين ولت لمحة البصر

هوستن – امريكا ... سليمان داود

دولة ودولة ، ومن اذكيائهم المهرة من يتخلصون من الجمارك المالية تخلصا يدفع الى العجب والاعجاب ، واطرف ما قرأت في ذلك ان غجريا ماهرا اراد ان يسافر بخنزيرين مذبوحين دون ان يدفع رسومهما الجمركية فأجلسهما في المقعد الخلفي لسيارته والبس كلا منهما قبعة بالية وقميصا رثا ، ووضع برقبتهما رباطين للعنق! وحين تعرض له احد رجال البوليس الاسباني أفهمه أنهما غجريان اكثرا من الشراب حتى فقدا الاحساس ! وقد نظر اليهما الشرطي متأففا ! وقال : غجر كالخنازير ! والفكاهة الجميلة في هذه النادرة ان الشرطي يشبههما بالخنازير فقط دون ان يفطن الى اتحاد المشبه والمشبه به ، لما يعلمه سلفا من قذارة الفجري ودمامته ! وفي ذلك من البلاهة والتغفل ما لا يجوز على غجري خنزير ! فكيف يجوز على شرطي مدرب نشيط ! .

ان الفجر مظلومون من الناس جميعا ، وقد قرأنا ولمسنا لكثير منهم بعض المحامد في دنيا الاخلاق كالشجاعة والرجولة والكرم والسخاء اذ ان بعضهم يعتبر الضيافة واجبا يوميا فلا يكاد ينقطع عنه الناس ! فلماذا لا نعترف لهم بالحسنات المجيدة كما نتندر عليهم بالهنات المحرجة ! اليسوا بشرا ينجذبون ساعة الى الارض ويرتفعون ساعة أخرى الى السماء ؟.

الفيوم – دار المعلمات ... محمد رجب البيومي

أصـــداء

بقلم اديل الخشن

★

الدنيا صيف ...
لكني سأبقي نوافذي مغلقة
سأوصد بابي ،
أضم همساتك
واغرق في دفء العتمة ،

جوك العبق سأختزنه في قلبي
صدى قبلاتك سأنعم به وحدي
رماد سجائرك سأعطر به ثوبي
وذلك الغطاء المفروش على سريرك
والذي قصفته في نومك ،
سوف أتركه كما هو
لالمح في كل طية
خيـــالا منك .

زهـــرة الياسمين
ستظل يانعة في صدري
تمدني باريجها المسكر ،
سلسلة المفاتيح ،
سأضعها في جيبي ...
فتحمل الي لمساتك الدافئة .

ايتها الريح توقفي خارجا
لا تجتاحي غرفتي
وتجرفي انفاس حبيبي
وانت ايها الضوء
دعني في ظلامي
ولا تبعثر اللوحة الغالية
انه هنا معي ...
احمله في صمت اهدابي
صوته يمتد في غرفتي
ولي فـــي عينيه
آفاق ومنارات ! ...

وترتمي عيناي اثر خطواتك
ايها الغائب البعيد ...
شرفتنا تناديك
في صباحها الهادىء .
البحر امامها يشرئب باصطخاب
ويسأل عنـــك .
امواجـــه شفـــاه
يدفعها الشوق فتنفجر متلهفة

نجوى وسمر تطوفان في البيت
ليل نهار تبحثان وتسألان
عيونهما مزروعة عند الباب
وهما تتسابقان لملاقاتك ،
واخفف من حيرتهما :
ـ « اللعبتان لم تصنعا بعد »
وتعلو البسمة
الشفاه الطرية
ويفـــرد الامـــل
مشعا في العيون !

ترى اين وصلت الآن ؟
وفي اي افق تتهادى ؟

عبق قهوتنا يشتاقك
فمنذ غيابك
لم تتضوع به شرفتنا

في تفريدة كنارينا الحان جديدة ،
تحلق في الفضاء
وتهبط سحبا في عيني .
واختلج وسط دموعي
فانا ما ضيعتك يوما
ولم أفارقك قط

غيابك حلـــم ...
تلاشت البرودة
وسرى الدفء في عروقي
انفلتت يداي تحتضنان الرسم الهادىء :
« عيناك واحتان »
ويهرب الضباب
وتنسرب في نفسي شموس خضراء

الشويفات ــ لبنان

اديل الخشن



عبد العزيز جادو

الاحساس بالجمال

بقلم عبد العزيز جادو

* * *

اختلف الناس في ماهية الجال اختلافهم في الاجناس والمشارب .. واختلفت مقاييس الجمال ومعاييره باختلاف الامم والشعوب .. فمن الشعوب من اعتبر اصفرار اللون وكبر الانف وصغر العيون والقدم وطول القامة كالصينيين . ومنها من اعتبره في بياض اللون واحمراره وصغر الانف والفم وكبر العيون واعتدال القد ، الى غير ذلك من صفات الجمال المعتبرة في ارجاء البسيطة المتمدنة . وكما ان للعين المنحرفة فتنتها عند الصينيين، كذلك فاللمعة السوداء لها عند الزنوج مقامها . وكما ان اليونانيين يفاخرون بالانف الاقنى ، كذلك يفاخر الرومانيون بالانف المعقوف ، والعرب بالانف الاشم . ولا يكاد يكون هناك عضو من الاعضاء الا اودع معنى من معاني الجمال او نسب اليه قوة فائقة .

وقد فرق العرب بين معناه ، فقال قوم ان الحسن يعتبر بلون الوجه ، والجمال يلاحظ بصورة اعضائه ، والملاحة هي التي تجمعهما . فكل مليح يكون حسنا وجميلا معا ، وليس كل حسن بجميل ، ولا كل جميل بحسن ، وان الجميل او الحسن هو الذي يأخذ بالبصر عن البعد ، والمليح هو ما يأخذ القلب عن القرب والبعد . فهو تفاهم كلي بين الرجل والمراة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول ـ ذلك الميل الروحي الذي ندعوه حبا .. وفي هذا المعنى يقول « يلاتينيوس » في تعريفه الجمال بأنه « امر موهوم بالحقيقة موجود بالعرض ، فهو عرض ظاهر تشعر به الحواس او احداها فترتاح اليه ، وتسر به ، وينشرح له الصدر ، ويبتهج به القلب ، فهو مشترك بين الحواس كلها » .

وقال فريق ان الحسن في الوجه صباحة ، وفي البشرة وضاءة ، وفي الانف جمال ، وفي العينين حلاوة ، وفي الفم ملاحة ، وفي اللسان ظرف ، وفي القد رشاقة، وفي الشمائل لباقة ، ثم يتسع في هذه الصفات فيقوم بعضها مقام بعضها الآخر .

ورأى آخرون ان الجمال عند العرب هو اعتدال القد ، وبروز النهد ، وبياض الصدر ، وثقل الردف ، ونحول الخصر ، وطول الجيد . فالعيون النجلاء او الدعجاء بسوادها ، الفتانة والجذابة بمفناطيسها ، والجفون الكحلاء ، الطويلة الاهداب كأسياف حادة فوق العيون ، والثغر الفستقي الخلاب ، الذي كحبة عنب او نقطة دم ، وحين يبتسم يفتر عن عقد من اللؤلؤ . والشعر الحالك المسترسل على الاكتاف الذي يذكرنا بسواد الليل . او الشعر الذهبي الذي يحاكي لونه اشعة الشمس الذهبية. والجبين الوضاء ، الوضاح ، الذي كأنه نظم من اقاح . والخدود الوردية الاسيلة ، اللطيفة ، الناعمة ، والابتسامة العذبة . والجيد الاتلع الاهيف الابيض الناصع الذي يشبه عنق الغزال ، أو كأنه البدر في جنح الدجى . والانف الرقيق ، ذو البريق . والحاجب الذي يبدو كأنما حجب الهوى عن النظر . والخصر الدقيق، اللين الرقيق، والزنود الممتلئة او المفتولة البيضاء . والايدي التي كصحائف اللجين . والنهود الرمانية ، البارزة فوق الصدر ، التي تترجرج حينما تختال الحسناء بمشيتها فتترجرج معها أوتار القلوب الخفاقة . كل ذلك جمال ، جمال بأجلى مظاهره ، جمال بمعانيه وصفاته ، جمال واي جمال !..

ومن النوادر اللطيفة التي تناسب هذا المقام ما رواه احد الظرفاء حيث قال : « استشار رجل عربي صديقا له في امراة يتزوجها فقال : « خذ ملساء القدمين ، لفاء الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين، حمراء الخدين ، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، لطيفة الثغر ، محلولكة الشعر ، غيداء العنق » .

وروى عن بعضهم انه قال لرجل اراد ان يتزوج : « استوثر فراشك » ، اي تخير السمينة من النساء !..

وروى ان أبا العباس السفاح كان يوما في خلافته فخلا به خالد بن صفوان فقال : « يا امير المؤمنين ، لقد ملكت نفسك امراة واحدة واقتصرت عليها ، فان مرضت مرضت ، وان غابت غبت وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري، ومعرفة اخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن . فان منهن يا امير المؤمنين الطويلة الفيداء، وان منهن البضة البيضاء ، والعتيقة الادماء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء .. ولو رأيت يا امير

المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللعساء ، والصفراء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ، ذات الالسن العذبة ، والقدود المهفهفة ، والاوساط المخصرة ، والاصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة ، والثدى المحققة ، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرايت شيئا حسنا » .

وبعث الحرث بن عمرو ملك كندة احدى الجاريات لتختبر له جمال الخنساء ابنة عوف الشيباني ، فلما رأتها الجارية وسمعت كلامها خرجت من عندها وهي تقول : « ترك الخداع عن كشف القناع » . ولما رآها الحارث قال : « ما وراءك يا أم عصام ؟ » فقالت : « يا أيها الملك .. صرح المخض عن الزبد . رايت جبهة كالمراة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة . ان ارسلته خلته السلاسل ، وان مشطته قلت عناقيد جلها الوابل . وحاجبين كأنما خطا بقلم ، او سودا بجمم . نقوسا على مثل عين الظبية العبهرة ، التي لم يذعرها قابض ولا راعتها قسورة . بينهما انف كحد السيف المصقول ، لم يعبه قصر ولا طول . حفت به وجنتان كالارجوان ، في بياض كالجمان . شق فيه فم كالخاتم ، طيب المبتسم ، لذيذ الملتثم . تقلب فيه لسان يبين عن عقل وافر وجواب حاضر . تلتقي دونه شفتان حمراوان تجلبان ريقا كالشهد . ركب ذلك في رقبة بيضاء كالفضة على صدر كتمثال دمية (اله قديم) ، يتصل به ذراعان وعضدان . ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس . ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما ، لين عصبهما . تعقد ان شئت منهما الانامل . نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ويمنعانها ان تتقلد سخابها . تحت ذلك بطن طوى كطي القباطي المدمجة ، كسي عجنا كالقراطيس المدرجة . تحاط بتلك العجن صرة كالمدهن المجلو . خلف ذلك ظهر فيه كالجدول . ينتهي الى خصر نحيل لولا رحمة الله لانبتر . لها كفل يقعدها اذا نهضت كأنه دعص الرمل لبدة سقوط الطل . تحته فخذان كأنما حشيا ريش نعام . ركبا على ساقين عبلين يرى من صفاتهما مخ عظامهما ، يحمل ذلك كله قدمان لطيفتان كحرف اللسان . فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما ! ... »

هذه كلها صفات لتلك النعمة الساحرة ، القاهرة ، نعمة الجمال التي تتلاشى امامها نعم الوجود جميعها .. يا لها من صفات تأخذ بمجامع القلوب وتستهوي الافئدة .

وكتب المنذر الى كسرى وقد أهداه جارية : « اني قد وجهت الى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء ، وطفاء ، كحلاء ، حوراء ، شماء ، أسيلة الخد ، جثلة الشعر . عظيمة الهامة ، عريضة الصدر ، كاعب الثدى ، حسناء المعصم . رقيقة الانف ، عزيزة النفس . رزينة ، حليمة ، كريمة ، اديبة ، قطيعة اللسان ، زهوتة الصوت ، تبادرك الوثبة اذا قمت ، ولا تجلس الا بأمرك اذا جلست » .

وهذا وصف بليغ آخر لصفات الجمال ، يحوي المحاسن كلها .. فتبارك الله الجميل الذي يحب الجمال .

وقال آخرون ان الجمال سلطان ينبعث من نور الوجه ، فيتسلط على القلوب ويجذبها . ومنهم من يعتبره سرا تفهمه الارواح وتفرح به وتنمو بتأثيراته . اما الافكار فتقف حياله محتارة محاولة تحديده وتجسيده بالالفاظ ولكنها لا تستطيع .

وهناك من يرى الجمال ـ كما كان يراه رجل الفن قبل ٣٠٠ او ٤٠٠ سنة ـ ممثلا في الوداعة والقداسة والسذاجة .

حكى ان عائشة بنت طلحة ـ وامها أم كلثوم بنت ابي بكر الصديق ـ كانت اجمل نساء عصرها . وكانت سافرة لا تستر وجهها ، فعابها احدهم في ذلك فقالت : « ان الله وسمني بميسم جمال أحببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم » .

كما ان هناك من يرى الجمال في الصمت والتفكير والهدوء ، ويراه في شروق الشمس وغروبها . ويراه في احضان الطبيعة الرحيمة . ويراه في حنو الطفل لامه . وفي لحن الموسيقى ، وفي بيت الشعر ، وفي تفكير الاحبة وقد اجتمعوا حول الامل يتهامسون . ويراه جاثما في صمت التماثيل ، وفي سجود المصلين ، وترتيل العابدين . ويراه في الحنان والرحمة ، ويراه في دفقة الشباب ، وفي وقار المشيب . ويراه في كل شيء ، وفي كل حقيقة ..

والجمال على وجه الاجمال آية تعنو لها الاعناق والرقاب ، وتفتتن بها العقول والالباب ، منذ خلق الله العالم واوجد آدم وحواء ..

ويمكن ان نقول أيضا ان الجمال هو المثل الاعلى لما أبدعته الطبيعة في صفحة الكون . فاذا حدثنا الدين عنه قال ان الجمال رسول الملائكة على الارض ، وهو توقيع الله على خليقته ، بل انه من صفات الالوهية ، فالله ـ كما يقول رسول الله ـ « جميل يحب الجمال » . وان الله مثال واصل كل جمال . وانه لطيف ذو جمال مطاق ابدي علوي لا ينقص ولا يفنى ولا يتغير ولا يزول . واننا لن نصل الى الجمال القدسي في معرفة حقيقة الله الا اذا بدأنا بهذا الجمال الارضي الذي يسمو بأرواحنا وقلوبنا فيوصلنا الى عالم الخلود والابدية بجوار عزيز مقتدر .

يقول الفارابي: «المعشوق منا هو الفضيلة والجمال، وليس العاشق منا هو الجمال والفضيلة » .

ويقول هيجو : « من يحب الجمال يرى النور »

ولله در الشاعر الظريف الذي ناجى ربه قائلا :

خلقت الجمال لنا فتنة — وقلت عبادي ألا فاتقون
وانت جميل تحب الجمال — فكيف عبادك لا يعشقون

واذا حدثنا الادب عن الجمال جعلنا ننصت الى

تغريد الطيور ، وهديل الحمام ، وسجع البلابل ، وشدو الكروان . ونرى بهجة الرياض المونقة ، الناضرة ، وفيها نضير في كمائمه .. وتبصر الشمس في موكب جلالها مشرقة على الكون تهبه الحياة والنشاط وتستفزه الى طلب المزيد من الحياة .. وجمال منظرها في الشروق والغروب ، وعمق أثرها في النفس الرقيقة الحساسة . ويصور لك الليل بنجومه السافرة المتألقة في كبد السماء تخطف الابصار . وقمره الفضي الهادىء الوديع ينشر في الفضاء غلالة منسوجة من خيوط الماس الدقيق ، يبعث في النفس الرضى والاطمئنان ، ويبعث فيها القوة وحب الحياة والابتسام لكل ما فيها من سمو وكمال ..

والجمال قبل ذلك وبعد ذلك ، حقيقة مطلقة تشترك في تقديرها العاطفة والمزاج والوراثة والبيئة والتعليم . وتقدير الجمال انما هو تقدير نسبي تشترك فيه عناصر كثيرة متباينة . وهو مع ذلك سرمدي، لا متناهي ، ازلي، أبدي ، عالمي ، شامل .. بعيد ، بعيد ، كالنجم حين يخفي نفسه في احضان الليل .. قريب، كعيني طفلك الصافيتين حين تبعثان في قلبك الحنان ، وتضفيان عليه الجمال ، كل الجمال ..

والجمال موجود في كل مكان ، كائن في كل شيء .. فهو احيانا يكون فينا ، في طوايا انفسنا ، كأنفاس طائر صغير ، يحب كل الاشياء الجميلة ..

وهو في بعض الاحيان ، حين نكون في اسمى حالاتنا ، يجعلنا نشعر كأننا على درجة كبيرة من الحسن والجمال . ونرى انفسنا في كل مكان، وفي كل شيء : في نهاية الافق البعيد ، على مدى البصر، حيث تميل السماء على الارض وكأنما تتعانقان .. وفي السحب التي تخلب اللب وتفتن الفؤاد بروعة الوانها .. وفي امواج البحر وهي تنسج زبدها السحري، وتوقع لحنها الابدي، الازلي ، في سيمفونية رائعة .. وفي اسراب الطيور الرشيقة ، بحركتها الخفيفة ، وتغريدها الشجي .. وفي الحشائش الهاجعة كبساط من سندس .. وفي المراعي الهادئة حيث سنابل القمح الذهبية تلسعها الشمس وتلاعبها النسمات .. وفي وجوه اصدقائنا ولداتنا وأحبابنا .. وهكذا ، كلما راينا شيئا من هذا ازددنا جمالا ، وازددنا جلالا ..

والجمال قوام الوجوه ، وجوهر الحياة ، ولب لباب الكون . فاذا نحن شعرنا بجوع او ظمأ فلنبحث عن الجمال يغذينا ويروينا ، ويملأ رئتينا هواء نقيا ، وقلبنا حبا تقيا .. فالجمال للانسان بمثابة الخبز الذي لا غنى له عنه . ومن اطعم بالجمال القلوب الجائعة ، فهو اشبه بقديس يطعم بالخير وبالحب الاجسام الجائعة ..

والجمال - ككل شيء في الوجود - الى زوال ، يجيء ويذهب . فهو كبسمة تتألق على وجه صبيح ، لطيف . تشف عما وراء الوجه الاليف من فرح وسرور .. او كاشراقة على جبين الزمن .. كذلك خلف اي جمال يمنحنا الغبطة ويهبنا السعادة يوجد نفس الجمال ، القادر على اعطائنا كل الجمال اللانهائي ، الذي يأتي ويروح .. الجمال الذي يلاحق بعضه بعضا ويتعقبه كالطيور الاليفة .. كالسماء الصافية .. كالنجوم اللامعة .. كنسيج الامواج السحري في ملاحقته الدائمة ، ومتابعته اللانهائية السرمدية ، في حركة رتيبة ، وايقاع بديع .. حيث تصب الانهار في المحيطات الى المجهول .. كالوميض الذي ينبعث من عيني عاشقين ..

الا ان هذا الجمال الذي يأتي ويروح - اذا راح فانما يترك فينا أثرا .. يترك فينا الجلال والبهاء والعظمة ، حيث تبقى جميعا فينا وتستقر وتضفي علينا الجمال والمهابة .

رأيت غلاما يتأمل الشمس عند الاصيل وفي عينيه سؤال : « والغروب أين يذهب ؟ » وتبدو عليه الحيرة تبحث عن جواب .. واذا به بعد لأي يعرف انه يغيب في غيب ، وينطوي في مجهول : في صمت طفل شاخص ببصره الى السماء في حال من تأمل وابتهال ، وفي بريق صورة لفنان ، وفي لحن اغنية لشاعر، وفي قلب العاشق المتبتل حيث يغدو لهيبا يتأجج في محراب الجمال ..

والجمال يهذب الاخلاق ، فالمحب للجمال لا يمكن ان يكون ابدا فظا او غليظا .. واذا استقر في القلب الجمال فلن يكون فيه مكان او ثغرة في مكان لكره اي شيء ، ولن يكون فيه مثقال خردلة من بغض لاي فرد . ولا يمكن ان تكون في النفس الطيبة الجميلة اية قسوة ، ولا في القلب الجميل اثر من رجس او دنس ..

والجمال يشرف الانسان ، ويرفع قدره ، ويعلي مكانته في العالمين ، ويسمو به الى أعلى عليين ..

والجمال هو الذي يؤلف بين القلوب ، ويوحد حباتها ، ويرقيها ، ويرقيها بالتعاويذ والرقى . وهذه الرقى بدورها تسحر العين وتخلب اللب وتثير الوجدان وتلهب الحس ، وتأخذ بمجامع القلب ، وتهز المشاعر ، وتطرب الاذن ، وتجلب للنفس المتعة ..

واكثر من ذلك فهو السلام العظيم ، الذي يدعو البشر الى السلم والسكينة والى الحب والخير ، والى العيش في استقرار وأمان ، لا يعكر صفوه مثقال ذرة من ضغينة او مقت او كراهية او عداء ..

فما أشد حاجة العالم الانساني حقا الى الجمال ..

وما احرانا ان نرفع اكفنا الى السماء مبتهلين الى الحق المتجلي بالجمال ، ربنا ، رب الجمال وخالقه ، متوسلين اليه بحبيبه لاهوت الجمال ، ناسوت الوصال ان يضع الجمال في انفسنا . وان يجملنا بكل ما هو جميل ، حتى نحب بعضنا بعضا ، وحتى تترابط قلوبنا ببعضها ، وتميل نفوسنا الى بعضها ، وتهيم ارواحنا ببعضها .. وحتى توفق النفس نغماتها الموسيقية مع لحن الحياة ، لتكون اكثر استعدادا لتأدية ما عليها من واجبات .

الاسكندرية — **عبد العزيز جادو**

عاد الغريب

القيت في حفلة تكريم اقيمت للشاعر خلال زيارته لوطنه

عاد الغريب الى ربوع الضاد　　هل تشتفي بالعود غلة صاد
هذا هو اليوم المقدس عنده　　والاكرم الاغلى من الاعياد
هذا هو الحلم الذي اغفى على　　اهدابه ، وصحا على ميعاد
وارحمتا للغائبين تشردوا　　في الارض بين حواضر وبواد
ضاعت وراء الترهات اصولهم　　وكبا وراء الرزق كل جواد
نزحوا قوافل في ركاب قوافل　　هل عاد للمغني سوى آحاد ؟
عشنا على الاوهام يخدع بعضنا　　بعضا ، ونضرب يقظة برقاد
لليل شكوانا ، وهل ابقت لنا　　غصص النوى الا حطام فؤاد ؟
ارض الغريب حنت على آمالنا　　لكنها جارت على الاكباد
شربت مدامعنا لقاء ثمالة　　وشرت عزائمنا بلقمة زاد
طرنا اليها جذوة وهاجة　　من صبوة وحمية وعناد
ثم انكفأنا حفنة مرذولة　　لا خير فيها من لقى ورماد
احفادنا يبنون فيها جنة　　انهارها من ادمع الاجداد
يا ليت لم نرحل ولم يبنوا ولم　　يضع الجدود بجنة الاحفاد
يا مهد احلامي ودار طفولتي　　(سبحان من القى اليك قيادي(1))
هل تذكرين على رباك كتيبة　　تعدو على خيل من الاعواد
يقتادها في النائبات مجرب　　جم الغرور بسيفه المياد
متهلل القسمات الا انه　　متواصل الابراق والارعاد
انا ذلك الولد الغرير تجهمت　　آفاقه ، وعدت عليه عواد
عصف الخريف به ولكن لم تزل　　في مقلتيه براءة الاولاد
الطود مسبح فكره لا رجله　　والسهل مسرح شوقه الوقاد
يحنو عليك بروحه ويود لو　　رقدت بقاياه باطيب واد
اعرفتني ام غيرتني غربة　　جارت بانياب على حداد ؟

يا معقل الاحرار لبيناك من　　خلف الشواطىء دون كل مناد
جئناك يحدونا الحنين ، وانه　　لاحب حاد في النفوس وشاد
هذا التراب العبقري يضم في　　احشائه دنيا من الامجاد
في كل شبر منه يرقد صارم　　للحق يصحب كوكبا للضاد
حمل الحضارة للوجود ولم يزل　　يحدو الشعوب الى الطريق الهادي
ان كنت لا استطيع رد جميلكم　　فلسوف اشكركم بدمع فؤادي

(1) الشطر للشاعر القردي

بوانس ايريس ـ الارجنتين

زكي قنصل

« لا تصدقي ما تقوله هذه او تلك » رفعت يديها المتعبة عن رأس المرأة وهي تمضغ اللبان « تأتي الواحدة منهن لتلقي بثقلها عليك ، هذا ان لم تدع بانها قريبة لك ... عجلي يا غولباز ، ضعي رأس السيدة تحت السشوار » .

وترفع السيدة غولباز اليتها عن الكرسي بمشقة ثم تمتد اصابعها المدببة بحركة لا شعورية الى الخلف لتعدل فستانها المعلولك بفعل التعرق . وتتدحرج كالطاحونة العتيقة الى زاوية الصالون الانيق لتفتح السشوار وتديره في الاتجاه المطلوب .

لم تكن السيدة غولباز عاملة عند جارتها بل كانت تسدي اليها يد العون بين الفينة والاخرى مقابل تصفيف شعرها بلا مقابل . وهذه المقايضة اللطيفة تسبب بعض الضيق للسيدة عنايات والسبب في ذلك يعود الى روح الانتهازية التي تتمتع بها تلك السيدة السمينة الشرهة حتى في وجبات الجمال . فهي تطرق الباب بلا مناسبة وتهجم على الصالون كابي قشطة فاتحة فاها الكبير لتلتهم كل ما حولها من روج وماكياج ورميل. ثم تبعثر الرولو والدبابيس هناوهناك مدعية بانها تبحث عن الحجم المناسب لشعرها وبعينين تقدحان شررا تقف السيدة عنايات مغيظة تضع يديها حول خاصرتها . ومع ذلك فهذه المعارك الاستفزازية التي تقوم بينهما لا تؤثر في قليل او كثير على علاقتهما الفريدة في هذا العمل الثمين . فالسيدة غولباز عاملة نشيطة لا تتقاضى اجرا كما ان عمل الكوافيرة في هذه البلدة الصغيرة يدر ربحا وفيرا باقل تكاليف ممكنة ، وبما ان تقاليد المدينة لا تسمح بفتح صالونات عامة للتزيين لجات السيدات الى فتحها في المنازل .

ومع ذلك فان فكرة كهذه لم تات من الرؤوس الناعمة الباحثة ابدا عن الحرير . وقد اصبح البحث عن الاعمال المربحة كالبحث عن البترول ، يسيل له لعاب كل مغامر يعمل زنبرك عقله بسرعة هائلة وباتت حاسة الشم عند هؤلاء كحاسة الشم عند كلاب الصيد يطاردون الفريسة بعند وشراسة الانسان الاول ، وتظل المطاردة حية ومشوقة حتى يرتمي قطيع الغزلان على الارض صريع التطور وجموح طبيعة العصر الذري .

ومهنة التزيين بحد ذاتها مهنة دقيقة ونظيفة تختص بفبركة الجمال وطبخ الانسجام في لغتة المرأة وبلورته . وحواء عادة تدخل من باب الصالون كئيبة قبيحة معقدة لتخرج منه نشيطة جميلة خفيفة تطير فوق مكنسة الساحرة .

ولصالون الجمال سحر اكيد فهو يسعد كل البيوت ولكن لا شك في انه يحطمها ، يسعدها فينشر البهجة والسرور ويعلم معنى النظافة والهارموني . اما لماذا يحطمها فهذا شيء مضمون لان النساء الفقيرات لا يملكن ثمن التسعيرة المتعارف عليها . فتشتبك الواحدة مع صاحبة العمل في جدال طويل ثم تلجأ الى قص تاريخ حياتها الحافل بالمآسي والدراما العنيفة ، كل هذا مخافة الدفع وبالطبع ذلك يتطلب حنكة ودراية ، ولكن ما بالك اذا كانت صاحبة الصالون قد اصبحت بالسليقة ذات خبرة ومعرفة قويتين في معالجة تلك الالاعيب .

كان لا يغيب عن بال السيدة عنايات ان هؤلاء النسوة يستدررن عطفها فتختصر الثمن او تسامح لكنها اكتشفت مع الزمن بان عملها يتطلب صرامة وشدة كعمل الطبيب .. اجل صرامة لا تخلو من بعض الشغب والمساومة والصراخ تماما كما يحصل في سوق الخضار او السمك .

اما الليلة بالذات فهي شديدة الحرارة ،

الكوافيرة

بقلم الآنسة رجاء ابو غزالة

يتصبب العرق من الوجوه ليسيل على المناشف النظيفة الملفوفة على الرقاب السمراء المتصلبة . اصابع السيدة عنايات تعمل كماكينة الخياطة وصوتها الجهوري يرتفع بين الحين والآخر كصوت قائد فرقة الفرسان .. الى الامام سر ، قف، انحناء .. ستوب ، الى اليمين من فضلك ... وتقوض المرأة عنقها مستسلمة كالديك الرومي فيعمل المقص في تهذيب فروتها .

احيانا تأتي احداهن وقد مسحت شعرها بالزيت البلدي حتى الجذور فتصرخ السيدة عنايات مستجيرة « غولباز اغسلي شعر هذه المرأة بالشامبو » .

« شامبو ايه ده يا اختي لا لا لقد اغتسلت قبل مجيئي الى هنا » .

« لن اتمكن اذن من تصفيف شعرك .. هذا مستحيل لانه مشبع بالزيت » .

« ولكني لن ادفع ثمن الشامبو » .

« غولباز » تشد السيدة عنايات رقبتها وقد نفد صبرها « اغسلي شعر هذه السيدة » .

وتتحرك الكتلة السمينة الى المغسلة وهي تعدل من فستانها ثم تمسك بحزمة القش المزيت بين يديها وهي تتمتم بصوت خامت :

« ان زجاجة الشامبو لا تكفي لغسل مشحمة ابو سعيد ، انجديني يا عنايات ».

« هيه » تبحلق عنايات فيها وقد حشرت دبابيس الشعر في فمها .

« اني اتساءل فقط هل يوجد لديك زجاجة اخرى من الشامبو ؟ »

« مم ماذا تقولين » بصقت الدبابيس بحنق « هل انتهت الزجاجة الاولى ؟ »

« طبعا يا اختي ، اسرعي ... ان مهنتك شاقة » ثم خفضت من صوتها « ان ظهري يكاد ينكسر » يدق الجرس ..

« غولباز عجلي زبونة في الباب » .

« يا حلاوة ، علها تكون دسمة كديك الحبش » .

تدخل امرأة تجر قدميها ، في الاربعين من عمرها ، سمراء بلون الطين ، تجيل عينيها كالحرباء في كل اتجاه ، قصيرة محدودبة الظهر تبرز عظام وجهها كالمومياء ... وفي حضنها الحاوي على فخذين مجففين وضعت كفيها في استراحة طويلة وجلست .

صوبت عنايات اليها نظرات متفحصة . لقد كانت تبحث عبثا في تلك المتوسطة في العمر عن مسحة جمال تعجنها وتصنع منها فطيرة ساخنة لا تخيب ظنها او ظن من يراها .

لم يكن شعرها حزمة قش بل كومة دقيق رفيق الحاشية يكاد يختفي في الصاج الصغير .

لم تكن تحمل في يدها شنطة او منديل ، اطمأنت عنايات بانها تصر فلوسها في صدرها . لا بأس ستدفع والسلام اطبقت فمها في استدارة مزمومة وانحنت فوق الرأس تمسك به كالجزار العنيد ، وفي شبه هياج مكتوم راحت توسعه تمشيطا وتمسيدا ... عندما فكرت في هذا العمل كان في رأسها نماذج رائعة لصور ووجوه تفوقها روعة ، لقد كانت تؤمن بان عملها هو عبارة عن تنسيق طريف لسلال من الشعر اشبه بالزهور .

لكنه مات . تطلعت في الصورة المعلقة على الجدار « لماذا مت انني اقوم بمسؤولية اربعة اطفال » ارخت شفتها السفلى وبدت

قصة

كأنها على وشك البكاء .

« يا ولد » نادت الخادم وهي تمسح انفها بظاهر كفها « خذ الاطفال من هنا ان الارض قذرة » .

ثم التفتت الى السيدة المعروقة « دورك يا ست » .

تتربع السيدة شبه مجفلة على الكرسي المستدير ثم تستدرك فتزيح اصابع الست عنايات عن كتفها فتأمرها تلك بالاسترخاء فتسترخي مادة قدميها الى الامام .

« والان ماذا سنفعل بك » .

وتبحلق المرأة بدهشة « اريد ان اكون جميلة » .

« هكذا اذن ، ودفعة واحدة » .

« لقد هجرني منذ شهور » .

« وماذا فعلت له يا عزيزتي » غمزت عنايات السيدة غولباز التي اخذت لها في تلك اللحظة مكانا في الزاوية ترشف فيه القهوة وتدلك قدميها التعبتين .

« ابدا والله لم افعل به شيئا » اغمضت عينيها وهي مستسلمة « لقد اخذوه مني اولاد الحرام » .

« لماذا جئت الى هنا اذن ما دام روميو قد هرب » قربت وغولباز كرسيها ووضعته امام السيدة » .

« يه يه يا عيب الشوم وهو مين روميو هذا » ضحكت ببله وهي تغطي فمها فبرزت اسنانها الصفراء ككوز ذرة يابس نخره السوس .

« احني رأسك من فضلك » .

« ايوه ، حاضر » .

« اذن فانت لا تعرفين من هو روميو » فهقهت غولباز بصوت عال فاهتز جسمها فوق الكرسي ككرة من المطاط .

« لا يا ستي » زمت السيدة شفتيها بامتعاض « انا لا اعرف سوى زوجي » .

« وماذا يعمل المحروس » .

سائق تاكسي « نفخت السيدة صدرها باعتزاز » .

« يا سلام على سواق الغرام ، معه حق يا اختي » .

« ماذا تقولين » .

« معك حق يا اختي » .

« آه صرخت السيدة مولولة ، لقد وعدني بانه سيأتي » .

« وبعدين يا غولباز نهرتها عنايات وقد نفذ صبرها » اريد ان انهي تسريحة الست ثم خفضت من صوتها « الم احذرك بانها ستتمادى » .

« لا بأس ستدفع مهما كلف الامر » .

« مستحيل ما دمت تشجعينها على الحديث » .

« يبوه اننا نمزح فقط ، لماذا الحر شديد » ، تململت ثم مسحت العرق عن جبينها وهي تقول للست :

« لا بأس عليك ، لا تحزني يا .. »

« محروسة الله يحفظك » .

« سيعود يا محروسة ما دمت الليلة ستبدين كالعروسة » .

« من فمك لباب السماء يا رب » .

« آمين قولي معي آمين » .

وتتنهد عنايات وهي تغسل يديها . لقد انتهى عملها في العاشرة مساء ولم يبق في الصالون الا تلك السيدة المعروقة ، تتلوى بين الفينة والاخرى تحت السشوار . ان منظرها يذكرها بالمجاعة والفقر الرذيل ، لقد كانت في صغرها فقيرة ، ولكن لم يصل بها الحال الى درجة تبدو معها كقفص من العظام . كان زوجها يطري دائما قدها المشوق ، وكان قصر قامته يعذبها فتضطر الى لبس حذاء مسطح يسبب لها ورما في قدميها . وهو اذا ما مشى بجوارها بدا كبرميل نفط يلتهب نشاطا وحيوية . يعمل ليل نهار لكي يهرب من سلاطة لسانها فتضمن بذلك بعدها عن محاولاته الغزلية السمجة . لكنه كان رجلها على اي حال ولا يمكنها التفريط به . وعندما علمت بحقيقة مرضه اصابها ذعر مميت فباتت تبحث معه في كل ليلة مسألة الميراث فطمأنها بان الميراث لا يؤمن لها ولاطفالها حياة رغيدة بعد مماته .

بالطبع لم تحزن ، ولكن عندما توفاه الله انفقت على مراسيم الجنازة مبلغا محترما لا يستهان به ، واخذت على عاتقها مسؤولية البيت والاطفال فاصبحت بذلك تحترم القرش وتقدره حق قدره فهي لن تدع زبونة واحدة تفلت من براثنها مهما كلف الامر ، ستحافظ على مستواها المعيشي لانه بات بينها وبين الفقر حاجز سميك من الاسلاك الشائكة .

ارتجفت محروسة من الخوف عندما حان موعد الدفع فاخذت تنبش في رأسها بحثا عن طريقة للخلاص فوقفت لها عنايات بالمرصاد وحدجتها بعينين متدليتين كعيني ضفدع خبيث فتكهربت تلك وبدأت تشمشم عبها وثيابها والهواء من حولها علها تعثر على الفلوس .

« لقد صدق حدسي اذن » تقترب عنايات منها على مهل فتتراجع تلك مذعورة .

« لا لا يا ست لن آكل عليك فلسا واحدا ارجوك امهليني للغد » تقهقرت الى الوراء وانهمرت دموعها فوق خديها المعفرين بالمكياج .

« سادفعها في الغد » شهقت بمرارة ثم اخذت تمسح برك الدموع المخضلة بالروج والرميل . الم اشرح لك بؤسي .. سيأتي الليلة « ابتسمت بهستيرية » سآخذ منه الفلوس وادفعها لك سيعرف بانني فعلت كل ذلك من اجله » .

« وان لم تدفعي صباح غد » طحنت عنايات اسنانها في غضب !

« سادفعها حبا بالله ، ساخدم في البيوت ، سادفعها بالقروش ، الا ترين بانه مبلغ كبير ، عشرون روبية ... انها تكفي لاطعامي انا وابني الصغير طوال الشهر ، حرام يا ست والله حرام .

هدأت محروسة بعد ان استبد بها اليأس وفشلت محاولتها الاخيرة في كسب قلب عنايات ثم نظرت في المرآة وقالت ببؤس « هذا جميل ، لقد حلمت به طول حياتي ، عاشت يداك » .

« وكيف أضمنك » انقضت عليها وقد الهبها الخوف .

« هاك اسورتي » .

« ضعيها فوق الطاولة ، مع السلامة » .

انسلت محروسة من الباب وخرجت الى الشارع لا تصدق عينيها ، ان روحها ما زالت تلق في صدرها الناتيء . همست في عبها وهي تعبر الازقة القذرة المليئة بالشحم ومياه الغسيل « والله يا محروسة عشت وشفت» تحسست شعرها تحت الملاءة السوداء « هذا جميل والله تسريحة العمر » .

في غرفة ضيقة رطبة حشرت جسمها المتعرق واقتربت من الصبي النائم في اسمال بالية تفوح منها رائحة الشارع والبحر والجوع . تمددت قربه وهي تحلم « لا لا لن تنامي الان يا محروسة سيذهب النوم بجمال شعرك » وضعت مسندا وراء ظهرها وجلست تنتظر ، لقد اعدت له كل ما يريحه ويحبه ، صحن المرق الساخن ، برعمان من البصل الاخضر الطري ، صينية فتة الحمص بالفلفل ، لا لم تنس نصيحة جارتها « الراجل يا بنتي عاوز حرمة نظيفة جميلة مثل بنات اليوم » .

تطلعت في المرآة المحطمة امامها « ياه كم انت جميلة يا محروسة » .

على حافة المسند غلبها النوم فتناغم شخيرها مع هرير الصبي ، لكن الزوج لم يأت ، طلع الصباح مشحونا بالغبار والذباب الكثير ، مددت ارجلها المتيبسة وهي تتثاءب لقد حلمت بانه عاد وفي يده صرة كبيرة مزخرفة يتماوج في طياتها فستان من الحرير الاصفر ، فهي تحب اللون الاصفر لانه بلون الذهب وتحب الذهب لان قيمته ثابتة . لقد علمتها أمها كيف تصره ليرات ليرات براقة تلمع كالشمس في حزام حول خصرها .

باعت الحزام لتشتري به قوت يومها بعد ان هجرها رجلها وتركها فريسة البؤس

القيروان

يروى ان عقبة بن نافع عندما دخل افريقيا وجد مكانا فيه افاعي وعقارب فنادى عليها ان تخرج وامتثلت كلها لامره .. وهناك بنى مدينة القيروان . وعندما زرت المدينة اوحت الي بهذه الابيات ...

سمعنا بسحرك منذ زمان | فجئنا نزورك يا قيروان
فنكحل بالترب منا العيون | ونخشع في قدس ذاك المكان
وكم لحت في حلمنا جنة | وها انت في العين ابهى الجنان
عروس الرمال تحية قلب | له في مغانيك اي افتتان
اتيتك فوق متون الرياح | اطير بشوقي رخي العنان

اسائل عقبة عبر العصور | اما من سبيل لشط الامان
بلادي دهتها الرزايا الكبار | وفي ارضها اجحر الافعوان
سموم الحتوف بانيابه | وغدر الابالس تحت اللسان
ولو زرتها اليوم يا عقبة | بكيت عليها الدموع السخان
فارض الجدود ومسرى الرسول ومهد المسيح تراب مهان
هلم مبيد الافاعي الكبار | اما منك حرب عليها عوان

نظرت لمحراب عقبة ارجو | جوابا يهدىء مني الجنان
سمعت الطبيعة حولي تردد | بيتا من الشعر جم المعان
قريضا نما من تراب البلاد | وفيه عبير الروابي الحسان
(اذا الشعب يوما اراد الحياة | فلا بد ان يستجيب «الزمان»
ولا بد لليل ان ينجلي) | ولا بد للصبح ان يستبان

لندن

فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى »

والوحدة . تذكرت الاسورة ، لم يبق لديها سوى الاسورة ، لكن الاسورة مرهونة. دست يديها تحت المسند وتحسست التعويذة . انه لم يأت ، لم يأت لقد بطل فعل الحجاب .

حدقت في طبق المرق البارد وبكت . انها لم تعمل ابدا في حياتها ، ان كرامتها لا تسمح لها بذلك . لكنها وعدت الست بان تدفع المبلغ بكامله .. « ايه كله » مزقت جلدها باظافرها وقد علا صراخها في بكاء كالعويل .

استيقظ الصبي فحضنته بقوة وهي ترفع خصلات شعره الاسود « الا ترى بان امك جميلة يا ولد » « يا واو » حملق الصبي في شعر امه «لم أر اجمل منك في حياتي».

قهقهت كالدجاجة المريضة ثم بكت،مسحت دموعها بطرف ثوبها ... لملمت اطرافه وانتصبت واقفة « بسرعة يا صبي ، اذهب الى قصر أم الزين واخبرها بان محروسة تود العمل » .

في القاعة الكبيرة المرصوصة بالمرايا ركعت محروسة فوق كومة العظام التي يحويها هيكلها وراحت تدعك بلاط الرخام بكلتي يديها ، وعندما تستريح كانت تسترق النظر وتراقب باسى تفسخ التسريحة الجميلة الذي عمل العرق والجهد والهواء الساخن المتسلل من الباب على اتلافها .

مع غروب الشمس عدت الروبيات بنهم واسرعت ترتقي السلالم الى بيت الست عنايات وعلى باب الشقة تلقفتها الست غولباز « محروسة ماذا جاء بك ، اخبريني هل عاد » .

خفضت محروسة رأسها باسى وهي تكفكف دموعها باطراف اصابعها ، ثم دخلت الصالون لتدفع الدراهم وتستعيد الاسورة. همست غولباز في اذن عنايات « حرام يا شيخة ان مظهرها يفتت القلوب انظري الى يديها ، الى شعرها المبتل بالصابون » .

« امكثي لحظة يا محروسة ، سأعدل لك التسريحة » .

« لا يا ست عنايات » .

« كما تريدين » هزت عنايات كتفها « مع السلامة » .

« لا افهم حتى الان كيف تأتي الواحدة قاصدة الكوافيرة ولا تملك فلسا » .

« الجنون فنون » ضحكت غولباز بصوت عال « لكن من اين انت بالفلوس يا ترى ، مسكينة » اغلقت باب الشقة خلفها وهي تفرقع باللبان .

جدة

رجاء ابو غزالة

نسيم الخـوري

بقلم شكر الله الجر

* * *

نسيم الخوري شاعر من شعراء لبنان المغمورين في البرازيل ينبع شعره من قلبه وروحه عاش للموائد الخضراء اكثر مما عاش لسواها من شؤون الحياة والادب.

ولو انه انصرف الى الشعر انصرافه الى العاب الميسر لترك لنا في رياضه المورقة باقة عبيقة الفوح مخضلة الورق.

لقد انتج قليلا من الشعر بيد انه على قلة انتاجه كنا نجد في شعره حلاوة البث ولطف الاداء واليك من افلاذه الموزعة في قوافيه هذه اللمحة المشرقة من معانيه.

مشيت وبي من لاعج الحب نزوة ... اضافت الى جسمي النحيل نحولا
كاني طبيب عاد يوما عليله ... ولم يتق العدوى فعاد عليلا

ولد في بلدة « بينو » من شمالي لبنان وهاجر وهو في روعة العشرين الى البرازيل فاستقر في عاصمتها القديمة يعالج التجارة فكشرت له عن نابها فتراجع عنها الى غيرها من موارد العيش .. فاتقن العاب الميسر على مختلف انواعها وكان موفق الطالع يجتمع اليه في لياليها شلة من هواتها المدمنين . تغيب الشمس عنهم وتطلع عليهم وهم عكف على موائدها الخضراء . ومن شعره فيها:

قضيت العمر معظمه ... وراء الميسر الجاني
لعلي مصلحا ما اختل ... من حالي وميزاني
فما صادفت غير الهزء ... من صحبي واخواني
وما صادفت غير الضنك ... في ربح وخسران
وحين تضيق بي الدنيا ... اعود لنظم الحاني .

وهكذا كانت حياته التي صورها اصدق التصوير في ابياته هذه .

لقد احببته لظرفه وخفة روحه ، وللضحكة التي ما كانت لتفارق شفتيه بالرغم من شيبه الباكر . وكثيرا ما كنت اداعبه مسلطا عليه بعضا من وخزاتي القلمية على صفحات مجلتي فيتسع لها صدره على كثرة المتغامزين عليه .

زار لبنان بعد غيبة طويلة فنعم بطيباته خلال فصل الصيف واتصل ببعض ادبائه وشعرائه بما فيهم الاخطل الصغير وامين نخلة وسواهما وانبسطت له الموائد في حلقاتهم الإنيسة ثم عاد الى مقره في عاصمة البرازيل يحمل الي قصيدة من شعره هي من موحيات الجبل المجلل بكرومه ، الباكي مع جداوله ، الضاحك مع ربيعه ، ومما قاله لي :

لقد مضت سنوات على اهدائك الي مجلتك الاندلس الجديدة وحتى الآن لا تعرف لونا (لعملتي) فاليك بهذه القصيدة كفارة عن قصوري ..

فضحكت وقلت الشعر بالشعر حرام يا نسيم فاجعل بينهما ما يستطاب فهرول المسكين الى داره وعاد لساعته يحمل الي علبة جميلة الصنع تفوح من خشبها رائحة الارز فسرني ذوقه وحمدت له هذا التذكار اللطيف ونشرت قصيدته في الصفحات الاولى من المجلة بعد ان قدمت لها بهذه الكلمات التي ارضته واغضبته معا :

« هذا شاعر جاوز الخمسين ولكنه ما تاب بعد الى رشده ولا تاب الى ربه .. فهو ما برح يعاقر الخمرة ويغازل المراة كأنه في الربيع الثاني من شبابه . يطل علينا اليوم بعد عودته من لبنان بغزلية تعبق من قوافيها ذكريات غرامه الاولى باحدى فتيات قريته « بينو » ولعلها كانت من بائعات اللبن فى ذلك العهد .. والى السامع هذا العتاب توجهه اليه على هجره لها » :

أتته تلوم على هجره ... وتعلم ما كان من أمره
وكيف سلا حبها بعدما ... تلظى زمانا على جمره
فكم مرة جاءها شاكيا ... غراما تأجج في صدره
فكانت تكفكف من دمعه ... وتطبع ثغرا على ثغره

ومنها :

أليلاي اضنت سنون البعاد ... فتاك وأطفأن من حره
غبار السنين على شعره ... ونار الفتوة في شعره
فقالت ألست التي الهمتك ... من الشعر ما ذاع من ذكره
واوحى اليك الهوى لحظها ... فجئت بسحرك من سحره
فهيا نعد للصبا والهوى ... فننهل ما طاب من خمره

وعندما أزمعت عودة الى لبنان بعد غربة طويلة واقامت لي الجالية اللبنانية حفلة وداعية في نادي جبل لبنان وذلك عام ١٩٦٢ اذا بالصديق الحميم نسيم يشق الصفوف الي فيضمني الى صدره ويغص بدمعة ويقول هنيئا لك يا اخي انك عائد الى لبنان اما انا فقد كتب لي ان ادفن في تراب البرازيل . وكان صوته مضطربا وقد قارب الثمانين من اعوامه فعهد الى احد اصدقائه ليلقي باسمه هذه الابيات التي نظمها خصيصا لوداعي فاكبرت فيه صفاء ذهنه وهو في الثمانين من اعوامه .

يعز علينا يا اخا الشعر ان نرى ... رفيقا لنا عن ربعنا اليوم نائيا
لقد كنت فينا مذ عرفناك شاعرا ... يصوغ اللآلي زاهيات غواليا
لئن غبت عنا سوف تبقى قلوبنا ... تراك على رغم التنائي باقيا
أتيناك في يوم الوداع ودمعنا ... على صفحة الخدين ينساب جاريا
فيا راحلا عنا الى موطن العلى ... عساك به تلقى المنى والمعاليا
فلا تنس في لبنان اخوان غربة ... فما فيهم الا بذكرك شاديا
واني وقد امسيت شيخا مهدما ... فان عدت يوما زائرا لا ترانيا
فيا ويح نفسي اذ اموت ولم تكن ... غداة مماتي فوق قبري رائيا

ليرحم الله روحك يا نسيم ان في ترديد ذكراك اليوم ما هو اخلد من وقفة على ضريحك ، واطيب من دمعة تنهل على روحك .

جبيل ـ لبنان

شكر الله الجر

اوراق الخريف

تناثرت منهمره … على الروابي المقفره
وانكدرت من شاهق … دون الثرى كثيره
ورفرفت تحسبها … قادمة من قبره
شاحبة كالميت في … أكفانه المنتشره
قميئة محتقره … مقبلة ومدبره
هزيلة ضاوية … في أمرها محيره
تخالها على الثرى … قد استحالت حشره
أو مزق الشلو الذي … عدا عليه قسوره

تكدست أطباقها … ملء الربى والادوره
وانتشرت على الثرى … في شاسع كالحبره
من شامها ألفى بها … حقيقة مسطره
في أمرها لعاقل … موعظة وتبصره
قد أوجزت ما قدحت … يد الاسى من شرره
وأعربت عن لاعج … للعيش نخفي عوره
لواعج نكتمها … من خشية على تره
وحرقة نحملها … كالجمرة المسعره

تواكبت أعلامها … منشورة مظفره
وانتظمت شاسع … كالليل أرخى مئزره
عاينتها صامتة … مطرقة مفكره
تجمعت أطباقها … على الثرى معسكره
كقطع من غيهب … تقاطرت منكدره
ساءلتها فأعربت … عن حالها مثرثره
وأفصحت بشاهد … موعدة ومنزره
شواهد على المدى … لا تنثني مذكره

أليس من مزدجر … بهالعين مبصره
هل نحن الا ورق … أيامها مسيره
تقاذفتها للردى … رياحها المزمجره
نجري وما من هدف … نجنيه او من ثمره
وكل سعي قدر … ولم يكن بمأثره
والعمر أضغاث رؤى … وقصة مكرره
قد طفحت بزائف … أحواضها وبالشره
حقيقة من دوننا … كالشمس راحت مسفره

دمشق

عدنان مردم بك

من اعلام الفكر والادب في فلسطين

ابو سلمى - خليل بيدس
انيس القاسم

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ - ((أبو سلمى))

الشعار الذي يحمله ((ابو سلمى)) شاعر الامة المشردة ، منذ هتف بالشعر وعرف السبيل الى ((عبقر)) واتخذ من القافية المجنحة اداة للنضال الحر ووسيلة لدفع الاذى بالصارم البتار قوله في ديوانه ((المشرد)) :

نحن أن لم نحترق كيف السنى   يملأ الدنيا ويهدي كل ركب ؟!

ولد ((عبد الكريم الكرمي)) في ((طولكرم)) الرابضة في السهل الفلسطيني المحزون عام ١٩٠٩ ، وتوزعت مراحل دراسته بين مسقط رأسه وبين ((السلط)) بالاردن و ((دمشق)) بسورية . وبعد ان احرز شهادة البكالوريا السورية عام ١٩٢٧ قصد بيت المقدس وعين معلما في المدرسة ((العمرية)) والمدرسة ((الرشيدية)) وفي هذا العهد التقى بصديق صباه ابراهيم طوقان شاعر فلسطين ، وعكف ليلا على درس الحقوق في ((معهد الحقوق الفلسطيني)) بالقدس ، وهنا برز عامل هام في حياته أفضى الى اقالته من عمله الرسمي ، ذلك انه نظم قصيدة نشرتها مجلة ((الرسالة)) القاهرية بعنوان ((جبل المكبر)) ، هاجم فيها السلطات البريطانية في فلسطين لعزمها على انشاء قصر للمندوب السامي البريطاني على ((جبل المكبر)) الذي زاره الخليفة العربي العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما هبط بيت المقدس وصلى فيه مع جماهير المصلين مكبرين ، ومما قال ((ابو سلمى)) في قصيدته :

((جبل المكبر)) ! طال نومك فانتبه   قم واسمع التكبير والتهليلا !
((جبل المكبر)) ! لن تلين قناتنا   حتى نهدم فوقك ((الباستيلا)) !

وبعد ان اطلع المسؤولون على هذه القصيدة اقالوا ((ابا سلمى)) من سلك التعليم ، لكن صديقه ابراهيم طوقان ضمه الى القسم العربي في الاذاعة الفلسطينية ، وبعد فترة استقال ((أبو سلمى)) من عمله الاذاعي وقصد حيفا ليزاول المحاماة فيها ، وبحلول الكارثة الفلسطينية الاولى (١٩٤٨) نزح الى دمشق وزاول المحاماة فيها والتدريس في تجهيزيتها والتوجيه والتوعية في وزارة الاعلام السورية ، واسهم في كافة المؤتمرات العربية والاسيوية الافريقية .

أبو سلمى : من حق القارىء أن يتساءل : لم اختار ((عبد الكريم)) كنية ((ابو سلمى)) توقيعا لمقالاته وقصائده ... حتى غلبت هذه الكنية اسمه الاول ، وآثر اخوانه ومحبوه مناداته بهذه الكنية ؟

والجواب عن هذا التساؤل هو : يوم كان ((عبد الكريم)) طالبا في الصف الثامن بمدرسة عنبر بدمشق عام ١٩٢٤ هفا قلبه الى حسناء دمشقية اسمها ((سلمى)) فراح يتغزل بها شعرا ، ولما تناهى الامر الى اساتذته وفي طليعتهم سليم الجندي وعبد القادر المبارك ومحمد الداودي ، وسمعوا أول غزل نظمه بالحسناء الدمشقية وكان مطلعه :

((سلمى)) ! انظري نحوي فقلبي يخفق   لما يشير الي طرفك أطرق

شجعوه على المضي في مغازلة ((سلمى))! وكلما اقبل ((عبد الكريم)) على ساحة مدرسة عنبر قابله زملاؤه محيين ... هاتفين : ((حبيب سلمى)) و ((أبو سلمى)) و ((يا أبا سلمى)) فلصقت هذه الكنية به ، ودحرت اسمه الاول !

من آثاره القلمية : وبالرغم من هول الكارثة الفلسطينية بشطريها الاول (١٩٤٨) والثاني (١٩٦٧) جزع ((أبو سلمى)) على وطنه المغصوب ، فصور الاهوال التي بلتها أرض الالام بشعر يفيض حسرة على الوطن السليب ، وحضا على الثار له ، ونشر الدواوين والكتب التالية :

١ - اغنيات بلادي (شعر) طبع عام ١٩٥٩
٢ - المشرد (شعر) طبع عام ١٩٦٣
٣ - اغاني الاطفال (شعر) طبع عام ١٩٦٤
٤ - كفاح عرب فلسطين (نثر) طبع عام ١٩٦٤
٥ - احمد شاكر الكرمي (نثر) طبع عام ١٩٦٤
٦ - ثورة فلسطين (مخطوط)

نماذج من شعره : بعد الاضراب الشامل الذي دعا اليه عرب فلسطين (١٩٣٧) احتجاجا على الهجرة اليهودية المشروعة وغير المشروعة ، وجه ملوك ورؤساء العرب نداء الى عرب فلسطين اكدوا فيه ان قضية فلسطين ستحلها بريطانيا ، وقالوا ((... ونحن اعتمادا على حسن نوايا الحليفة ندعوكم الى القاء السلاح)) .

وفي اليوم التالي لهذا النداء استيقظ عرب فلسطين والمسؤولون عن الامن على قصيدة موزعة على الجدران وفي الشوارع بتوقيع ((ابو سلمى)) جاءت بمثابة رد على نداء الملوك والرؤساء العرب ، ولاقت الاستحسان من سائر الاوساط الوطنية ، فاقبل الواعون من العرب على اقتنائها واستظهار ابياتها وكان مطلعها :

انشر على لهب القصيد   شكوى العبيد الى العبيد

ومنها :

شكوى يرددها الزما   ن غدا الى الابد الابيد

ويؤمن ((أبو سلمى)) بان ((فاروقا)) ملك مصر السابق ما كان الا دمية في يد المستعمر البريطاني ، فيحرض مصر على هذه الدمية :

يا مصر ضيعت المنى   بين الفريدة والفريد

ثم يتلفت الى ((فاروق)) ويقول له صراحة وجهرا :

أحسبت ان الملك بالتهـ   ـويل يؤخذ والوعيد
ما أنت الا دمية   يلهى بها في يوم عيد !

كان ((أبو سلمى)) رفيق ثلاثة من الشعراء العرب الذين عاشوا في صميم المحنة الفلسطينية وهم خير الدين الزركلي وجلال زريق وابراهيم طوقان . اما الاول فقد انضم الى السلك السياسي السعودي ، واما الثاني فمتقاعد يقيم حاليا في بيروت واما الثالث فقد لحق بربه بعد عراك دام بينه وبين الداء ، وعراك سياسي قام بينه وبين المستعمر ، وظل ((ابو سلمى)) وحيدا في الميدان السياسي ، يصاول الخصم ويجادله بشعر قومي لاهب دعا فيه الى مناجزة المستعمر البريطاني والدفاع عن الوطن المغصوب ، والحفاظ على كينونة شعب مغلوب على أمره أراد الحرية والاستقلال ، لكن المستعمر الغشوم أبى الا تصفيده بالقيود والاغلال ، واراد له الفناء والاضمحلال .

وعاشت فلسطين في اتون من الثورات ، كما عاش ((ابو سلمى)) يؤجج النفوس بشعر حماسي ويدعو الى السلاح وتخضيب الثرى الطهور بالنجيع القاني !

واخيرا عرف المستعمر ، بعد حكم جائر استطال ثلاثين عاما ، كيف يجتث الاصول ، ويقتلع الجذور من التربة العربية ، فاستباح الحمى ، وشرد الاهل وغرس ((اسرائيل)) في قلب العالم العربي ، رغم الانوف ، وصليل السيوف !

وزادت الكارثة المزدوجة « أبا سلمى » مضاء وتصميما على شجب العدوان ، والتشهير بالطغيان ، وشرح قضية عادلة كانت وما برحت أظلم قضية عرفها التاريخ ! فاقبل على الشعر يصور فيه مأساة الامة العربية ، ويروي للعالم الحر ما صب الظالم الغشوم من صنوف الترويع والتفجيع ، وفي طليعتها قنابل « النابالم » المحرقة ... وفاضت شاعريته حمما ، وغلى مرجل حقده بقصائد حزمها في ديوان نفيس اسماه « المشرد » قال في مطلعه بلسان (المشرد) الفلسطيني :

يا أخي ! أنت معي في كل درب ... فاحمل الجرح وسر جنبا لجنب
قد مشيناها خطى دامية ... أنبتت فوق الثرى أنضر عشب
نحن ان لم نحترق كيف السنى ... يملأ الدنيا ويهدي كل ركب
والدم الحر الذي وحدنا ... خلد التاريخ في أروع كتب

سر معي في طرق العمر وقل ... أين من يحمي الحمى أو من يلبي؟
فهنا الايتام في أدمعهم ... وهنا .. تهوي العذارى مثل شهب
الوشاحات تعرى زهرها ... بعدما كانت موشاة بسحب
وشيوخ حملوا أعوامهم ... مثقلات بشظايا كل خطب
هم ضحايا الظلم هل تعرفهم ؟ ... انهم أهلي – على الدهر – وصحبي

وبشعر لاهب متوقد اللظى صور « ابو سلمى » المأساة الفلسطينية في (لوحات) شعرية تمثل هول الكارثة التي حلت بعرب فلسطين فشردتهم من ديارهم أيدي سباء .. ليحتلها « اليهودي التائه » ويزدردها .

ولو استعرضنا شعراء العربية تالدا وطريفا وصنفنا من هام منهم بوطنه ، وعلقوا بحبه ، وقارنا ما أنشدوه بما أنشد « أبو سلمى » لوجدناه قد بز أقرانه بلون فريد من شعر الحنين الى الوطن ، ووصف مصائبه واحنه ، وتصوير كوارثه ومحنه :

خلقت على ملاعبها شبابي ... واحلامي على خضر الروابي
درجت على ثراك وملء نفسي ... عبير الخالدين من التراب
فلسطين الحبيبة كيف أغفو ؟ ... وفي عيني أطياف العذاب
تمر قوافل الأيام تروي ... مؤامرة الاعادي والصحاب
فلسطين الحبيبة كيف أحيا ؟ ... بعيدا عن سهولك والهضاب
تناديني السفوح مخضبات ... وفي الآفاق آثار الخضاب
تناديني الشواطىء باكيات ... وفي سمع الزمان صدى انتحاب
تناديني مدائنك اليتامى ... تناديني قراك مع القباب
ويسألني الصحاب الالقاء ؟ ... وهل من عودة بعد الغياب ؟
أجل ستعود آلاف الضحايا ... ضحايا الظلم تفتح كل باب
غدا ستعود والاجيال تصغي ... الى وقع الخطى عند الاياب
ونحن الثائرين بكل أرض ... سنصهر باللظى نير الرقاب

وأي شاعر يلثم ثرى وطنه ، وينشق عطره ، كما يفعل « ابو سلمى » الشاعر المتيم الولهان بحب وطنه :

زحفت ألثم أرضي وهي باكية ... والقلب باك وراحت تنتشي القبل
وعدت أنشق من عطر التراب هوى ... في ظله التقت الاجداد والرسل
أهلي على الدهر.. تدميني جراحهم ... في حبهم يتساوى العذر والعذل
خيامهم في مهب الريح معولة ... ودورهم من وراء الدمع تبتهل
تقاذفتهم دروب العمر دامية ... وانكرتهم ربوع الاهل والملل
في كل أرض شظاياهم مشردة ... وتحت كل سماء معشر ذلل
أطوف احمل انى سرت نكبتهم ... كانني طيف ثار والحمى طلل

ويشجي (الكرمي) ما أصاب فلسطين الباكية على بنيها المشردين، المتطلعة الى فجر يوم جديد ، المتلهفة لفارس مغوار يحمي ذمارها ، ويغسل عارها ، ويعيد اليها العزة والكرامة :

هذي فلسطين هل أشجتك تربتها ... تبكي الاحباء من غابوا ومن رحلوا؟
وهل شجاك الدم المطلول تسفحه ... أيدي الجناة وقد عاهدت من قتلوا؟
تبكي المروءات مرخاة غدائرها ... وما انتخت للجهاد البيض والاسل
تبكي العذارى واذيالا مطهرة ... لم يحم تلك الذيول الفارس البطل!

ويظل « ابو سلمى » يحمل هموم أهله المشردين ، يعيش في صميم بلواهم ويستشير همم فتية الوطن المسلوب ، ليستردوا مرابع الاهل ما دامت في ايديهم المشاعل :

يا فتية الوطن المسلوب هل أمل ... على جباهكم السمراء يكتمل ؟
أنتم بنو الشعب.. لا الطغيان يرهبكم ... ولا زعيم على الشيطان يتكل
تبنون أمجاده والخلد رفرفها ... كانما هي بالآباد تتصل
أن الطريق الى العلياء مظلمة ... ولن تضل وفي أيديكم الشعل !

واذا تشوقت يا قارئي الكريم الى ملخص الكارثة الفلسطينية فقد كفاك « ابو سلمى » مؤونة ذلك ، فاقتن نسخة من ديوان « المشرد » واقرأ فيه (لوحة) شعرية بعنوان « الدم العربي المطلول » ، تحمل في ظلالها قصة الوطن المغصوب ، والشعب المغلوب ، والشرف المعطوب!

٢ ـ خليل بيدس

في (الناصرة) مدينة (المعلم الصالح) ولد خليل بيدس (١) عام ١٨٧٤ وتلقى دروسه الابتدائية في المدرسة الارثوذكسية وأخذ مبادىء القراءة والكتابة العربية عن المعلم يوسف نصر. « ومن اخبار خليل(٢)، وهو في الثامنة من عمره ، انه ضرب بحجر دجاجة لوجيه الطائفة الارثوذكسية عازر حبيب فكسر رجلها ، فقدمت الشكوى عليه الى المعلم يوسف نصر ، فما كان منه الا ان ربط الغلام النحيف الجسم بحبل الفلق وادلاه في بئر الماء في قاعة المدرسة ، ولكن كثرة ضجيجه وبكائه عجلت في اسراع الاسقف فنشل الولد من البئر وهو مرتجف الاعصاب، ولم يعد يجسر ان يرجع الى بيته الملاصق لدار عازر حبيب فعاش في بيت عمه الياس حنا الصباغ في حضن خالته » .

كان « ابراهيم » (٣) والد « خليل » تاجرا يبيع الاقمشة لسكان الخيام الضاربين في الغور على عدوة الاردن ، ولم يكن ذا ثروة ، ومات « ابراهيم » شابا لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وكان « خليل » حين مات أبوه ، لم يتجاوز بعد الخامسة من عمره . ولم تلبث امه «وردة» ان تزوجت وتركته مع أخته في حضانة جدته « دلة » ثم تولى أمر العناية به « الياس حنا الصباغ » عمه وابن خالته « نجمة » فعاش في بيت عمه ، في حضن خالته » .

وشاء الله ان يفتح الروس مدرسة عالية في الناصرة ويسعد الحظ الفتى « خليلا » ان يكون في عداد المنتخبين للتعلم فيها بمسعى من اعمامه .. واقام « خليل » في المدرسة الداخلية الروسية ست سنوات (١٨٨٦ – ١٨٩٢) واستحق بعدها أن يتولى ادارة المدارس الروسية الابتدائية في انحاء من سورية وفلسطين ، فعاش في حمص سنتين أبدى في اثنائهما مهارة وبطولة ثم نقل الى بسكنتا حيث جهز الطالب « مخائيل يوسف نعيمة » ليقبل في كلية الناصرة الروسية .

ومن بسكنتا نقل « خليل » الى سوق الغرب بعد ان اقترن بالسيدة أدال أبي الروس احدى معلمات المدرسة الابتدائية الروسية، وأخيرا نقل الى جديدة مرجعيون .

والحديث عن « كلية الناصرة الروسية » او قل : « السمنار » يقتضينا ايراد لمحة تفصيلية عن المدارس الروسية في الشرق العربي لتكتمل « الصورة » ضمن هذا « الاطار » :

أطل (٤) القرن التاسع عشر ومعه نهضة ادبية كبرى . ففي عام ١٨٧٥ زار الشرق الامير الغراندوق سرجيوس الروسي للاطلاع على حالة الحجاج الروس في طريقهم الى القدس والناصرة وما يليهما من الاماكن المقدسة التي سبق الروس اليها كثير من الارساليات الفرنسية والطليانية والانكليزية والالمانية ، فكانت لهم المدارس والكنائس الفخمة.

وزار هذا الامير زعيم النصارى في الناصرة ، الوجيه المضياف طنوس قعوار ، واطلعه على ما يرغب فيه من تامين السفر للروس برا ، والمحافظة على راحتهم وسلامتهم في حلهم وتنقلاتهم من ميناء يافا الى

سائر الجهات في فلسطين حتى كفرناحوم على شاطىء الحولة عبر الجليل الذي داسته قدما المسيح . أبدى رغبة في تأسيس مدارس وبناء ملاجىء للزوار في كل بلد يهبط فيه الزائرون الروسيون ، فأيد فكرته هذه الوجيه طنوس قعوار والخوري خليل نصر كاهن قرية المجيدل بجوار الناصرة حيث تربى يسوع .

ولبس (طنوس) خاتم الامير عربون ولاء وتألق صليب ذهبي مرصع على صدر الكاهن الورع ، ورجع الامير الى بلده في روسيا وقد شبعت روحه من الآمال الجسام ، واتفق مع رجل روسي تقي همام معطاء اسمه « ختروفو » على تأسيس جمعية في روسيا غرضها فتح مدارس ، وبناء كنائس ، وتشييد ملاجىء للحجاج ، وايد السينودس الروسي مشروعها العالي واقر المساعدات المالية بسخاء .

وكان أول فوج من الزائرين الاتقياء يصل الى الاماكن المقدسة في فلسطين في اليوم الخامس والعشرين من شهر آذار وهو عيد البشارة الحافل ، فتكتظ كنيسة الروم الارثوذكسية في الناصرة بالالوف من النساء والرجال الروسيين يتقدمهم الكهنة واجواق المصلين والمرتلين يخترقون الطرق المتعرجة بين الاودية والجبال القاحلة ويمتزج بهم شباب وفتيان يلوكون كلمات روسية يتصيدونها من افواه الجماعات المتدفقة ، ويبيعونهم الخبز والبصل والتراب المقدس ، زاعمين أنه من بقايا آثار قدمي المسيح واقدام رسله الاطهار . والروس السذج يصدقون ويدفعون الثمن بسخاء .

وينصب الكهنة العرب موائد على أبواب الكنائس يضعون فوقها سجلات ضخمة وصحافا فيها نقود كأنها تنطق بوجوب تسجيل اسماء المحسنين ، فاذا بالصحاف تمتلىء بالروبلات واقلام الكهنة تسجل الاسماء بالحرف العربي وصفوف الزوار تتدفق !

وكان أطفال العرب يرتلون ما سمعوا من صلوات لا تنقطع وأيديهم مبسوطة للعطاء . وأعجب ما كان يظهر عندما تنفس ارتال الجموع في كل ماء يعترض طريقهم ولو كان ضحلا متبركين بالماء المقدس الذي أعتمد فيه المسيح .

وفي مطلع اسبوع الآلام تتدفق جماعات الزوار الى القدس ليشهدوا يوم القيامة العظيم ، والشعب الروسي طيب القلب يصدق ما يسمع ، فكانوا يقعون في أحابيل المكر وشباك الحيل ، ويفقدون حتى اكياس ملابسهم وفيها نقودهم .

وكان لا بد من ايجاد رجل عربي يتقن اللغة الروسية ليقوم بمهمة المدارس ، فاذا بشاب دمشقي كان يتعلم في « كيف » اسمه اسكندر جبرائيل كزما وكان قد صرف في المدرسة اللاهوتية مدة سنتين وبقيت من حياته المدرسية سنتان اثنتان ، فوقع الاختيار عليه لكنه رفض الطلب الا ان تمنحه الجامعة الشهادة الكاملة . واستمر يدرس ستة شهور بجد ونشاط فنال الشهادة باستحقاق وحزم ثيابه الى الشام قاصدا انشاء مدرسة لتخريج معلمين قادرين على القيام بامور المدارس الابتدائية ، لكن الجمعية في بطرس برج لم توافق المعتمد كزما على طلبه لان الجمعية كان اسمها « الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية » فانتقل الاستاذ كزما الى القدس فلم يلق آذانا مصغية لطلبه ، بل وجد تعنتا ورفضا من اخوية القبر المقدس اليونانيين ، فجاء الى عكا الحافلة باثرياء ووجهاء الطائفة الارثوذكسية ، وهنا واجه العناد من المتروبوليت فيمم الناصرة حيث رحب به الوجيه طنوس قعوار وانزله في جناح من داره الرحبة فاستدعى (كزما) المعلم نقولا أبو طبيخ وباشر الاثنان يعلمان بشغف ونشاط اللغة الروسية (وكانت من نصيب كزما) واللغة العربية (وكانت من نصيب أبي طبيخ) .

وكانت مدرستهما أول مدرسة في الشرق العربي لقنت الطلاب الادب العربي العالي والمعاني والبيان والعروض وقرض الشعر . ومن برامجها العليا الجغرافية والتاريخ وعلم الصحة والرياضة البدنية والموسيقى والرسم وصناعة النجارة والتجليد ، وعنيت بالترجمة عن الروسية وبالقيام برحلات على الدواب وعلى الاقدام الى الاماكن التاريخية لتعزيز المعلومات من الوقوف على الآثار وما كان اكثرها في فلسطين . وكان من طلابها اللامعين جميل بولس قعوار وقسطندي قنازع وجرجس ابو درويش وسليم قبعين وكلهم من ابناء الناصرة . وشاءت الجمعية ان تختار قسطندي قنازع للجامعة في موسكو ، وبدأ سليم قبعين يعلم في قرية المجيدل وأبو درويش في قرية الرامة وذلك سنة ١٨٩٣ .

وتخرج من مدرسة الناصرة سنة ١٨٩٤ ستة شبان يحملون شهادة التعليم الابتدائي والثانوي العالي وانتشروا في سورية ولبنان وقاموا باعمالهم خير قيام في حمص واللاذقية ودمشق وطرابلس واميون وعكار ومرجعيون وصافيتا .

وفي سنة ١٨٩٦ قضى أبو طبيخ نحبه ودفن في الناصرة ، فاستدعى الرئيس كزما الاستاذ خليل الله وردي من دمشق وكان أديبا طويل الباع في اللغة العربية وخطيبا مفوها . وكانت مدارس عدة في قرى الناصرة وعكا ، وكانت مدرسة دار المعلمات في بيت جالا التي انجبت خير المعلمات فيهن الاستاذة كلثوم عودة من الناصرة المعروفة في الاوساط الثقافية الروسية .

وهكذا تغلغلت النهضة الادبية في لبنان وافادت الطائفة الارثوذكسية ودب النشاط في أقاصي البلاد فشرع أهل القرى يشيدون الابنية والجمعية الروسية تهتم بانتخاب المعلمين والمعلمات الذين كانوا يتخرجون كل سنتين بعد دراسة تدوم ست سنوات .

وتراكمت الاعمال الشاقة على الاستاذ الرئيس كزما فكان لا بد من انتخاب مساعدين له ، فحضر من روسيا « مالينين » ثم « نقولا يفسكي» ثم « رياجسكي » ثم « بفدانوكي » ثم « سباسكي » وسموا هم بوصفهم نظارا وممثلين للجمعية الروسية يقيمون في الناصرة ودمشق وطرابلس، وظل الاستاذ كزما في دار المعلمين في الناصرة يؤلف الكتب الدينية التي ملأت مكتبات المدارس ولم يعرف الطلاب غيرها .

وترجم خريجو المدرسة التي عرفت باسم السمينار سنة ١٩٠٢

---

(١) اسرته في الاصل هي اسرة « الصباغ » و « بيدس » لقب اطلق على عمه « يوسف » فغلب هذا اللقب على اسم الاسرة وصارت تعرف به . وتفصيل ذلك فيما ذكره نعمة الصباغ : « كان يوسف عم خليل - اذا نشبت معركة بين شباب الحارة الشرقية (وهو منها) والحارة الغربية ، يصد المهاجمين مهما كثر عددهم بعصاه ، ولا يبالي بالضربات تنهال عليه . وحدث مرة انه لم يتمكن من الوصول الى بيته فانتزع باب دكانه وهاجم الشباب الغربي وانهال عليهم بالباب ضربا حتى بدد شملهم والدماء تنزف من رؤوسهم وردهم على اعقابهم مهزومين . وكان في عهده رجل متين العضل عامل في البناء ، غريب الدار ، اسمه « بيدس » لا يقوى احد على أن يقوم برفع الاثقال مثله، فلقب « يوسف الصباغ » بـ « يوسف بيدس » وكانت له اخت اسمها (مريم) زعيمة النساء في الافراح والاتراح ، فاذا أطلت قال المجتمعون : « جاءت مريم أخت بيدس » فغلب هذا اللقب على تسمية العائلة بـ « الصباغ » . (٢) خليل بيدس : رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين ص ٢١ بقلم الدكتور ناصر الدين الاسد. (٣) المصدر السابق ص ٢٠ . (٤) مجلة (الورود) عدد كانون الاول ١٩٦٤ وكانون الثاني ١٩٦٥ بقلم : نعمة الصباغ . (٥) صدرت في نيويورك لصاحبها يعقوب مخائيل وصدر العدد الاول منها في ١ كانون الثاني ١٩٢٠ . (٦) خليل بيدس : رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين ص ٣٤ بقلم الدكتور ناصر الدين الاسد . (٧) النفائس العصرية : الجزء ٣ من السنة الرابعة - اذار ١٩١٢ ص ١١٠ - ١١٧ . (٨) اعتمدنا في سرد اسمائها « خليل بيدس : رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين » ص ٣٤ بقلم الدكتور ناصر الدين الاسد .

كتاب الحساب « السلسلة الذهبية في المسائل الحسابية » واشتهر هذا الكتاب وافاد المشتغلين به .

ومات الاستاذ خليل وردي سنة ١٨٩٨ فوقع الاختيار على الاستاذ جبران ميخائيل فوتيه البيروتي ودام في منصبه ست سنوات فاستقال ورجع الى ادارة مدرسة الثلاثة الاقمار الارثوذكسية في بيروت ، فحل محله في الناصرة الاستاذ جورج شاهين عطية ، بينما كان أبوه في بيت جالا في سمينار البنات يساعده الاستاذ الناشيء خليل السكاكيني المقدسي ، ويرجع الاستاذ فوتيه الى منصبه في الناصرة بعد غياب سنتين .

ويضع الاستاذ فوتيه « كتاب السائغ الصرف في علمي النحو والصرف » للصفوف الابتدائية ، بينما يستسيغ الفية ابن مالك ويغدق شروحاته عليها للمنتهين ، باسلوب سهل المأخذ فيحل السائغ الصرف محل كتاب القواعد الجلية والاجرومية ، ويلقي بين أيدي الطلاب المنتهين كتابه في العروض ، وهو كتاب جامع مفيد سهل المأخذ حل محل كتاب العروض للشيخ ناصيف اليازجي وسماه « البسط الشافي في علمي العروض والقوافي » .

ويتوالى التخريج والتدريس حتى عام ١٩١٤ اذ وقعت الحرب الكونية الكبرى ، فاقفلت المدارس الروسية في فلسطين وسورية ولبنان ورجع الاساتذة الى مدنهم وقراهم ، وأحرق الاتراك ما في المكتبات من كتب كانت توزع على الطلاب مجانا ، وأتلفوا معالمها .

وتناول الاساتذة المنقطعون عن العمل اعترافا رسميا من وكلاء الجمعية بدفع مرتباتهم طول الاقفال ، ولكن هذا لم ينفذ لان الجمعية فقدت صندوقها وزال بزوال الامبراطورية الروسية .

وانتشر المتخرجون في سائر الاقطار يتولون ادارات المدارس الابتدائية والثانوية على اكمل وجه ومارسوا التعليم في فلسطين وسورية ولبنان والعراق فكانوا خير مدرسين وافضل معلمين في المدارس وكان لهم مقام في عالم الادب ، منهم أصحاب القلم والتأليف والشعراء المجيدون نظير : ميخائيل نعيمة وايليا أبو ماضي ونسيب عريضة وناصر عيسى واسكندر الخوري البيتجالي ونعمة الصباغ .

واشتهر من ارباب القلم : خليل بيدس وسليم قبعين وايليا الحاماتي وشبلي رزق ، ونبغ معلمون ماهرون منهم : أديب سعادة وانطون بلان وقسطندي قنازع ونعمة الصباغ وغيرهم . ولم يكن يدخل دار المعلمين السمينار الروسي في الناصرة الا من كان متفوقا في مدرسة قريته ، ولذلك لم تكن الصفوف تضم الا النبغاء ولهذا لم تخرج مدرسة الناصرة الا ارباب الادب العالي جملة وافرادا .

ومما يجب الاشارة اليه ان المدارس الروسية الابتدائية في المدن الفلسطينية والسورية واللبنانية كانت تقدم لجميع الطلاب الفقراء كانوا أم اغنياء ، الكتب والدفاتر والاقلام والريش والحبر وورق النشاف وبعض الادوية والشاش المعقم مجانا .

وفي عام ١٩١٤ كان عدد المدارس الابتدائية يربو على مئة وعشرين مدرسة لا تزال الاوساط الادبية تتحدث عنها وعن فضلها ولا سيما صفوف الحضانة فيها ، ولقد سافر الى روسية ، على نفقة الجمعية ، نخبة من المتفوقين منهم : ابراهيم ورور ونايف وهبه وقسطندي قنازع (من الناصرة) وميخائيل نعيمة (من بسكنتا) ونسيب عريضة وميخائيل أسكندر وعبده سليمان (من حمص) وسواهم ممن أتموا دروس اللاهوت ، ورجع منهم الى الناصرة عدد انضموا الى أساتذة السمنار الروسي باشراف الرئيس كزما وبمساعدة اربعة معلمين من اكاديمية (كيف) فبرع الطلاب في اللغة الروسية والعربية واقتبسوا اللغة التركية وكان لا بد من تعلمها .

الى فلسطين : وفي عام ١٩٠٨ نقل خليل بيدس الى حيفا وشجعه اعلان الدستور العثماني على اصدار مجلة باسم « النفائس » فذاع صيتها في الاوساط العلمية والثقافية بالبلاد العربية ، وقد توفر (بيدس) على اخراجها أحسن اخراج فني وجعلها مسرحا للاقلام الخصبة في فلسطين وسورية ولبنان والمهجر ، وكان لها صدى بعيد في عالم الادب العربي المعاصر قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها .

الى المجلس المختلط : وفي عام ١٩٠٨ (عام اعلان الدستور العثماني) قررت الحكومة العثمانية انشاء « مجلس مختلط » نصفه من العلمانيين الارثوذكس في فلسطين والاردن ونصفه الآخر من الاكليروس اليوناني الفلسطيني ، لادارة شؤون الطائفة العربية الارثوذكسية والاشراف على الاوقاف الارثوذكسية في فلسطين والاردن بعد ان كان يتولى ادارتها ويستأثر بريعها الاكليروس اليوناني مستقلا وسلاحه في هذه الاثرة ارشاء رجال الباب العالي بسخاء ليكموا أفواه المصلحين العرب المطالبين بالحق العربي .

ونظرا لما كان يتمتع به صاحب « النفائس » من كفاية علمية وجرأة أدبية اختاره العرب الارثوذكس في شمالي فلسطين بالتزكية ليمثلهم في « المجلس المختلط » فاستقال من ادارة المدرسة الارثوذكسية في حيفا وجاء القدس واستقر فيها .

واثناء عمله في « المجلس المختلط » انصرف الى الكتابة فاسس مجلة باسم « النفائس العصرية » وهي أول مجلة علمية عربية لاقت رواجا عظيما ، وكانت رابعة اخواتها ف « النفائس » في فلسطين و « الاخلاق (٥) » في الولايات المتحدة و « المقتطف » و « الهلال » في مصر . ومن قبل هذه المجلات الاربع حملت مجلة « الضياء » للمرحوم الشيخ اليازجي لواء العلم والادب .

« قد (٦) دل اسعاف النشاشيبي على منزلة « النفائس » وانتشارها بما ذكره في مقدمته لسلسلة مقالاته عن « امثال أبي تمام الطائي » التي نشرها في « النفائس » (٧) فقال : « وقد آثرت نشرها في هذه المجلة البليغة النابهة لانتشارها الباهر في القطرين الفلسطيني والسوري ولميل ادبائهما اليها جد الميل ! » .

وفي بيت المقدس اسس « خليل » مكتبة فريدة حوت مخطوطات قديمة العهد وكتبا ثمينة لكنه ارغم على تركها في منزله بالقدس لتأخذها العصابات الصهيونية غنيمة باردة عندما اغتصبت فلسطين العربية في أيار ١٩٤٨ .

وخلال اقامته الطويلة في بيت المقدس شارك في الحركات القومية وطالب الاتراك بانصاف العرب وكتب مقالات نشرتها « الاهرام » و « المقطم » . وعند قيام الثورة العربية الكبرى (العاشر من حزيران ١٩١٦) ضد الحكم التركي حكم عليه بالاعدام لكنه لجأ الى البطريركية الارثوذكسية في القدس في عهد البطريرك ذميانوس الاول فحماه هذا وأنقذه من المشنقة ، فلاذ بالصمت الى ان دخل البريطانيون فلسطين غزاة مستعمرين .

وبعد ان وضحت النيات وبانت الاهداف الصهيونية انخرط « بيدس » في الحقل السياسي العربي ودعا العرب الى العصيان على الحكومة المنتدبة وعدم التعاون معها لعملها المكشوف على تهويد فلسطين .

وفي عام ١٩٢٠ قاد أول مظاهرة عربية قامت في بيت المقدس بمناسبة عيد النبي موسى وخطب في الجماهير حاضا على ثورة عارمة ضارية للاجهاز على وعد بلفور ، وكانت آخر عبارة قالها للمتظاهرين وهو يبرح مكانه في باب الخليل بالقدس : « لقد بح صوتي ... لكن قلبي لن يبح ! » .

وسرعان ما اخمدت السلطات البريطانية نارها فحكمت على « بيدس » بالاعدام وبعثت بكوكبة من الجند البريطاني الى منزله وألقت القبض عليه وهو بلباس النوم وحملته الى دار الحكومة ، وبعد اسبوع من الاقامة الجبرية اودع سجن عكا لتنفيذ حكم الاعدام لكن المظاهرات التي قامت في المدن الفلسطينية ادت الى تبديل حكم الاعدام بالسجن عليه مدة خمسة عشر عاما .

وفي سجن عكا ألف « بيدس » كتابا اسماه « حديث السجون » وفيه وصف سجن المستعمر والاساليب الوحشية التي يعامل بها ذوي العقول النيرة من رجالات البلاد ومساواتهم باللصوص وقطاع الطرق ، لكن هذا الكتاب فقد مع ما فقد من الآثار القلمية التي خلفها الفقيد .

ولما جاء فلسطين السر هربرت صموئيل كأول مندوب سام عفا عن المحكومين السياسيين وأمر باطلاق سراح المعتقلين وكان موسى كاظم باشا الحسيني وخليل بيدس في عدادهم ، وعاد سماحة الحاج امين الحسيني من دمشق والاستاذ عارف العارف من السلط ، وهنا عرض المسؤولون على « بيدس » العمل في مديرية المعارف العامة لكنه استنكف عن التعاون مع المستعمر وكان جوابه « انا لا أباع .. كما لا تباع نفسي وقلبي ! » وأخذ يصدر « النفائس العصرية » ويعلم اللغة العربية وآدابها في « مدرسة المطران » بالقدس الى ان تقاعد عن العمل سنة ١٩٤٥ .

بعد النكبة : ولما اقترب يوم ١٥ ايار ١٩٤٨ ، وهو اليوم المحدد لدخول الجيوش العربية أرض فلسطين بغية تحريرها ...! رأى « بيدس » وقد أصبح شيخا ان يبقى في داره ب « البقعة الفوقا » وحده ، وظل هذا الشيخ العربي المؤمن في بيته الواقع في طرف ذلك الحي العربي وهو واثق ان اليهود اذا دخلوا الاحياء العربية فلن يكونوا وحوشا ... لكنهم ، بعد ان دخلوا هذا الحي العربي ، وقد خلا من الحامية والمدافعين ، اخذوا يرتكبون افظع الجرائم .. فتناهى هذا الى « بيدس » وهم يقتربون من بيته ، ولما رآهم يتعمدون القتل والسلب والنهب بارح منزله طلبا للنجاة ، واخذ طريق البر والوادي الى « سلوان » سيرا على قدميه ، وبعد ان قطع ارضا غليظة شائكة اغمي عليه ، لكن سرعان ما اكتشف اهل القرية هوية هذا الشيخ المؤمن فاعتنوا به بعد ان عاد اليه وعيه ودبروا انتقاله الى عمان فبلغهامنهوك القوى ، خائر العزم ، وبعد أيام يمم بيروت لحاقا باولاده وفي التاسع من شهر شباط ١٩٤٩ توفي فيها ، وهكذا مات خليل بيدس مؤمنا بحق بلاده شهيدا في سبيلها .

من آثاره القلمية : في عام ١٨٩٨ بدأ « بيدس » الترجمة عن الروسية ونشر مترجماته ، وكانت بواكيره ثلاث قصص مطولة جزمها في كتب ثلاثة هي : « ابنة القبطان » و « القوزاقي الولهان » و « العقد الثمين في تربية البنين (تأليف) » .

وندرج فيما يلي (٨) اسماء ما أتيح لنا مطالعته، في سن الشباب، من آثار قلمه ، واسماء ما لم يتح لنا الوقوف عليه لقدم طباعته ونفاد نسخه :

(١) ابنة القبطان : لبوشكين ـ طبعت في جريدة المنار ـ بيروت سنة ١٨٩٨ .

(٢) القوزاقي الولهان : رواية مترجمة ـ نشرت في جريدة « لبنان » لصاحبها ابراهيم الاسود في سنتها السابعة ، بيروت سنة ١٨٩٨ ، ثم طبعت مستقلة سنة ١٨٩٩ .

(٣) الطبيب الحاذق : رواية طبعت في بيروت سنة ١٨٩٨ .

(٤) العقد الثمين ، في تربية البنين: تأليف ـ المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩٨ .

(٥) تاريخ روسيا القديم : بيروت ١٨٩٨ . (٦) حفلات التتويج : بيروت ١٨٩٨ . (٧) الكسور الدارجة : بيروت ١٨٩٨ . (٩) مرآة المعلمين : لبنان ١٨٩٨ .

(١٠) شقاء الملوك : رواية للكاتبة الانكليزية ماري كورلي ، ونقلتها ز. جورا فسكايا الى اللغة الروسية بعنوان « شقاء الملوك » ، نشرها مسلسلة في اعداد المجلد الاول من مجلته « النفائس » ابتداء من العدد الثاني (٧ تشرين الثاني ١٩٠٨) وصدرت الطبعة الثانية مستقلة سنة ١٩٢٢ بمطبعة دير الروم الارثوذكس بالقدس .

(١١) أهوال الاستبداد : لتولستوي ، طبعت بالمطبعة الوطنية بحيفا سنة ١٩٠٩ في ٣٣٨ صفحة ثم بالقاهرة سنة ١٩٢٧ .

(١٢) الحسناء المتنكرة : للكاتب الايطالي اميل سلفاري ـ صدرت ملحقة بالمجلد الثالث من « النفائس العصرية » سنة ١٩١١ ثم طبعت ثانية سنة ١٩٢٥ .

(١٣) الدول الاسلامية : القدس ١٩١٢ . (١٤) تاريخ الطيران : القاهرة ١٩١٢ . (١٥) رحلة الى سيناء : بيروت ١٩١٢ . (١٦) ملوك الروس : القدس ١٩١٣ . (١٧) درجات الحساب (جزءان) : القدس ١٩١٣ .

(١٨) درجات القراءة (ستة اجزاء) : القدس من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩٢١ .

(١٩) أمم البلقان : القدس ١٩١٤ .

(٢٠) هنري الثامن وزوجته السادسة : (تأليف الكاتبة الالمانية ف. ملباخ) طبعت هذه الرواية في القدس سنة ١٩٢١ .

(٢١) العرش والحب : (رواية تاريخية غرامية مترجمة) طبعت في القدس سنة ١٩٢١ .

(٢٢) تسريح الابصار فيما تحتويه بلادنا من الآثار : القدس ١٩٢٠ .

(٢٣) الوارث : (رواية اجتماعية غرامية) : القدس سنة ١٩٢٠

(٢٤) الروضة المؤنسة ، في وصف الارض المقدسة .

(٢٥) تاريخ القدس : القدس ١٩٢٢ .

(٢٦) ديوان الفكاهة : القدس ١٩٢٤ .

(٢٧) مختار البيان والتبيين (مع شريف النشاشيبي) القدس ١٩٢٤ .

(٢٨) مسارح الاذهان (مجموعة أقاصيص) القاهرة سنة ١٩٢٤ .

(٢٩) الكافي في الصرف : القدس ١٩٢٥ .

(٣٠) العرب أبطالهم واشهر حوادثهم : القدس سنة ١٩٤٢ .

(٣١) نحن واللغة : أحاديث لغوية اذاعها من الاذاعة الفلسطينية (٣٢) أحلام الحياة . (٣٣) اسرار الحياة . (٣٤) صور الحياة ـ أقاصيص .

(٣٥) حنة كارنين : لتولستوي .

نموذج من نثره : « ايتها الشمس ! لله أنت أيتها الشمس ! ما اجملك وما أبهاك ! انظر اليك ، وانت تحملين الى لجج البحار سيول التبر الذائب ، وتنثرين الزمرد واللؤلؤ !

في طرفة عين ، وانت تسبحين في البحر ، تبنين من الامواج الفيروزية قصورا عجيبة غريبة ، ولكنك لا تلبثين ان تهدميها لتبني غيرها أغرب وأعجب وأجمل ، اذ لا حد لتفننك وابداعك !

أنظر اليك ، والنفس توافة الى الخروج ، الى حيث ترقص أشعتك الذهبية ، لامرح معها وارقص واعدو من جهة الى اخرى ، ومن قصر زاه باهر الى آخر خالب ساحر !

وما أجمل الغابة وقد كسوتها حلة ارجوانية فاصبحت كالحكايات الغريبة بحوادثها ، المدهشة بعجائبها !

أيتها الشمس المشرقة ! انني احبك واهواك لانك احسنت الي وأحييت قلبي ، وملأت نفسي أملا يوم كنت شابا ، ويوم كان قلبي منجذبا الى السماء .

فقد أحببت وقتئذ فتاة جميلة كأنها أحد أشعتك ، ورشيقة ولطيفة كالزهرة الفضة ، وكنت حين اسمع صوتها كأني اسمع نغمات الملائكة !

كنا كلانا نستقبلك كل يوم صباحا وانت مطلة من وراء الجبال ، ترسلين شعاع ابتسامك الى وجه الحبيبة ، فتصبح كلها شفافة وخفيفة كاشعتك ، ونقية كالماسك ولآلئك !

وكنت ـ اذ ذاك ـ ادنو الى وجه الحبيبة فاقرأ في عينيها تلك الحكايات الحلوة التي كانت والدتي تقصها علي لانام وأرى فيها الاحلام التي كنت أراها وانا طفل !

وفي احد الايام ـ قد أصبحت رجلا ـ كنت واقفا على شاطىء البحر والى جانبي امرأة بارعة الحسن والجمال ، وقد ذهبنا الى ذلك الشاطىء لنستقبلك ايتها الشمس ، وننظم لك آيات التسبيح ، وكأنك اوحيت الى تلك المرأة الجميلة فمدت يدها البضة الى كتفي ، وشعرت بانفاسها المنعشة تهب على وجهي . وقمنا بعد ذلك نعيد لشروقك وقد اشرق في نفسي الحب كما اشرق في نفس المرأة التي كانت الى جانبي ، واشفقت وقتئذ ان تغيبي فتغيب شمس حبي ! وخفت ان تطمو عليك امواج البحر فتغرقك !

ومرضت بعد ذلك واحسست في احد الايام بثقل في رأسي كأنه محشو بالرصاص حشوا ، وكان المطر يتساقط على نافذة غرفتي فيروعني ، ويرتد نظري عنها اذ لم تكوني فيها ايتها الشمس ، ولقد خيل الي أن غولا هائلا قد ابتلع العالم بجملته !

وخيل الي ايضا اني لن اسمع بعد اغاريد الفتاة الحسناء في المرج وعلى ضفاف النهر ، ولن أرى اشرعة المركب وهو يسبح على مرآة الامواج الزمردية مسرعا بمن على ظهره من الركاب الى حيث تتدفق اشعتك العجيبة أيتها الشمس !

ونمت وأنا حليف الهم وقد ملأ اليأس قلبي لانني خشيت الا ارى تلك العيون التي فيها سعادتي ، وخفت أن اموت فلا يسمع احد نشيد حبي !

ولبثت على فراش المرض مدة ، وقد ودعت الحياة واخذ شبح الموت يدنو مني .. ثم فتحت عيني فجاة .. فشعرت بدبيب الحياة في جسمي ، وشعرت بان الرصاص الثقيل قد بارح رأسي !

هذه أنت أيتها الشمس الجميلة قد زرتني ثانية فكبحت جماح الموت وأبعدت شبحه عني ، وقد دخلت اشعتك الى غرفتي وسطعت على الجدار وفي المرآة ، واشرقت على صورة محبوبتي ، وكانت على منضدة بازاء سريري ، فرأيتها كأنها تبتسم لي وتناديني !

وكنت مرة في الغابة ، فرأيت صيادا يحمل طائرا لا يزال حيا ، وهو ينتفض بين يدي قانصه ، والدم يسيل منه . وكان الصياد قد أخذه الى النهر فغمسه في الماء ثم وضعه في جرابه ، وعاد فغسل يديه من آثار دماء الفريسة ... وكنت أيتها الشمس طالعة وقد رأيت ذلك الصياد وشهدت فعله ... ولكنك أشرقت على يديه الملطختين بالدم!

ورأيت في احد الاكواخ الحقيرة عجوزا طريحة الفراش ، وقد اشتدت عليها وطأة المرض ولم يعد لها رجاء في الحياة الا اذا ارسلت اليها ايتها الشمس بعض أشعتك المحيية ، ولكنك لم تسمعي نداء هذه المسكينة ، بل اعرضت عنها ، ورحت تسطعين على قصور القتلة والسفاحين !

رأيت كل ذلك منك أيتها الشمس ، وقد هالني ما رأيت ، وصرت اخشاك وأرهبك ! فاذا مت غدا وطويت في حفرتي واجتمع اهلي واصدقائي يبكونني ويندبونني ... فانك ستشرقين أيضا فوق قبري ضاحكة مسرورة ، كما كنت تفعلين يوم كنت أسبح لك ... وسترسلين اشعتك ، تلك الاشعة التي سطعت على يدي الصياد الملطختين بالدم ، والتي كانت العجوز الميتة في أشد الحاجة اليها لحياتها ... ولا فرق عندك بين الجريء والمجرم !

كنت اود أيتها الشمس ان تضحكي لمن يكون أهلا لضحكتك ، وتعبسي في وجه من يستحقون عبوسك !

ان من البشر أبالسة لا يستحقون ان تشرقي عليهم أيتها الشمس ... وكأنما أنت تزيدينهم ضلالا واسترسالا في الجرائم والموبقات ! ».

٣ ـ الدكتور أنيس القاسم

الشعار الذي حمله « انيس » وظل يتغنى به ويرفع رايته قول « ابي بكر » الصديق : « القوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف قوي عندي حتى آخذ الحق له ! » .

ولد « انيس » في قرية حارس (بلواء نابلس) عام ١٩٢٥ وتحدر من أسرة القاسم الشهيرة في تاريخ فلسطين ، وتلقى دراسته الابتدائية في المدرسة البكرية ببيت المقدس ومن اساتذته فيها الشاعر الفلسطيني الكبير « ابو سلمى » . وبعد ان اكمل الدراسة فيها انتقل الى المدرسة الرشيدية ثم الكلية العربية ونال شهادته عام ١٩٤٥ ، وخلال سني دراسته دلل على ذكاء متوقد وظل (الاول) في كافة صفوفه واشترك في المباريات الرياضية وهو طالب في الكلية العربية وفاز ببطولة الميل ركضا لمدارس لواء القدس عام ١٩٤٤ وببطولة مدارس فلسطين للمسافة ذاتها عام ١٩٤٥ واسهم كغيره من الطلبة الفلسطينيين في الاضرابات والمظاهرات التي شهدتها فلسطين ابان حكم الحديد والنار .. استنكارا لتهويد الارض المقدسة !

وفي عام ١٩٤٥ اختارته حكومة فلسطين مبعوثا الى بريطانيا لدراسة الحقوق بجامعة لندن فحصل على ليسانس في الحقوق بامتياز عام ١٩٤٨ وماجستير في الحقوق وبارستر في الحقوق عام ١٩٥٠ . وفي عام ١٩٥٧ سافر الى الولايات المتحدة للتخصص في دراسة قانون البترول والغاز ونال دبلوما في هذا الفرع .

وخلال دراسته في بريطانيا شارك في القاء المحاضرات وفي المناظرات حول القضية الفلسطينية ، وكان احد مؤسسي « جامعة الطلاب العرب » في بريطانيا عام ١٩٥٤ وانتخب اول امين عام لها .

لم ينتم « انيس » في يوم من الايام لاي حزب سياسي ايمانا منه بان تحرير فلسطين في حاجة الى جميع الطاقات ، وتحقيقا لهذا الهدف حذر من هدر هذه الطاقات والامكانات ما دام المسعى هو تحرير الوطن المغصوب ، وصارح برأيه هذا في كتابه « الاعداد الثوري لمعركة فلسطين » وهو يؤمن ايمانا عميقا بالقومية العربية ، وفي رأيه ورأي كل قومي عربي ، ان النضال في سبيل تحرير فلسطين هو نضال من اجل انتصار القومية العربية ... والوحدة العربية ...

وفي صيف عام ١٩٦٤ دعي « انيس » للاشتراك في المؤتمر الفلسطيني الاول المنعقد في بيت المقدس .

وقعت الاحداث المروعة في فلسطين عام ١٩٤٨ و « انيس » بعيد في بريطانيا وفي عام ١٩٥٢ قصد ليبيا ليعمل في هذه الحكومة العربية الفتية وعين مستشارا قانونيا في وزارة العدل . وعلى أثر سن قانون البترول الجديد عام ١٩٥٥ عين « انيس » رئيسا للجنة البترول التي عهد اليها بتنفيذ هذا القانون ، كما كان لبعض الوقت ، وهو في اللجنة المذكورة ، مستشارا لشؤون البترول في وزارة الاقتصاد الوطني وممثلا للحكومة الليبية في عدة اجتماعات عقدها خبراء البترول العرب ، وانتخب رئيسا للجنة العامة لمؤتمر البترول العربي الاول المنعقد في القاهرة عام ١٩٥٩ .

وبعد استقالته من العمل في الحكومة الليبية عام ١٩٦٠ اشترك مع الدكتور انطون صفير في وضع قانون البترول لدولة الكويت بناء على طلب منها ، واخيرا زاول مهنة المحاماة في مدينة طرابلس الغرب حيث يمارسها الآن .

نموذج من شعره : خلال دراسة « انيس » في الكلية الرشيدية بالقدس شجعه الشاعر المعروف الاستاذ محمد العدناني على نظم الشعر لما لمس فيه من حب للادب ، وقد نشرت له مجلة « المنتدى » التي كانت تصدر في القدس طائفة من القصائد ، ومن شعره هذان البيتان وفيهما يخاطب فتاة احلامه :

قد كنت أبلغ من يقول وانت حلم في وجودي
حتى ظهرت فصرت أبلغ في السكوت من النشيد

يحتفظ « انيس » بين اوراقه بمادة من الشعر الوجداني تكفي لديوان أو اكثر ، ومعظم هذا الشعر وجداني اوحت به قرينته ... لذا يؤثر شاعرنا ان يظل هذا اللون في طي الكتمان ... غير انه نظم نشيدين لـ « صوت فلسطين » وقد لحنا واذيعا من هذه المحطة ، ومن

الرمح.. وصمت اليتامى

بكـم تطـاول رمـح — زهوا .. واومض صبح
ومـــن صبيب دمـاء — علـى النحور تسح
نمـــا ببطن الصحاري — ورد ، وأورق ملـح !
يــــا فتح ، ان فؤادي — لـــولاك اعياه برح
يــــا حقل نـور تهاوى — بـه الظـلام الاسح
يــــا شهقة البرق يغفو — موت عليهــا ويصحو
يــــا حربـة ينتضيها — بعـد التشرد جـرح !
لئــن أنــاخ رعيـل — ضعفا .. وارهق جنـح
واغتال زهــو الاقاحي — غـب المتاهة لفـح
فقـد افـاق لهيب — صـاد وصوت ملـح
يصيـح بـين الروابي — « لبيك ، لبيك فتـح »

بغداد

سفيان الخزرجي

قوله في مطلع احد النشيدين مخاطبا زوجة الفدائي الـــذي تترقب عودته من الارض المحتلة :

لا تقلقـــي ... سيعـــود — فـــي قلـــب العواصف
بطـــلا يدمـــر والـــردى — مـــن عزمه العربـي واجف
واذا المنـــون تخطفتـــه — فانـــه فـــي الارض واقف
علما يـــدل علـى الطريق — وموكـب التحريــر زاحف

ومن شعره الوجداني قوله :

عزيزتي مـــا أعمـــق النـــداء — ياتيك مـــن نفس رضي الفنـــاء
فانني اودعتـــه مهجتـــي — وفيـه اطلقت المنـى والرجـاء

عزيزتي ! قد طال هـــذا الفراق — واستبسل الصبر وعـــز التلاق
وفورة الاشواق فـــي خاطـــري — تحمل القلب بمـــا لا يطـــاق !

عزيزتـــي مـــا اكثـــر الامنيات — تطوف بـــي في يقظتي والسبات
تنقذنـــي مـــن عالـــم عاجـــز — لعالم ناموســه المعجزات !

نموذج من نثره : « ان (١) اعمق ازمة يمر بها هذا الجيل مـــن ابناء الامة العربية هي ازمة المسؤولية التي تجاوز فـــي مداها وآثارها حدود ما تعارف عليه الناس من مسؤولية القائمين على الحكم ، وتمتد لتشمل مسؤولية كل فرد عن نفسه واسرته ومجتمعه ووطنه .

والواقع ان المقياس الحقيقي الدقيق للوعي هو مقدار ما يشعر به المواطن من مسؤولية، ومدىاستعداده لتحمل هذهالمسؤولية بصورة ايجابية ، والقيام بما تفرضه عليه من واجبات وتضحيات ، وكذلـــك فان الشعور الحقيقي بالمسؤولية هو ذلك الشعور الذي يرافق المـــرء في جميع تصرفاته ، الخاصة والعامة فاذا توفر هذا الشرط اعتبر المرء عندئذ وعندئذ فقط ، واعيا وعيا آصيلا عميقا .

وهذا الجيل من الشباب العربي الذي شاءت له الايام ان يكون على موعد مع القدر لا يواجه فقط عبء تحمل المسؤولية واداء الرسالة، وانما يواجه ايضا عبء بث روح تحمل المسؤولية وتعميق ذلـــك فـــي النفس ، بحيث لا يستطيع المواطن العربي ان يفكر الا تفكيرا مسؤولا ، ولا يمارس حقا من حقوقه ، او ينهض بواجب من واجباته ، الا وهو مقدر لما عليه من مسؤولية في الحالتين . ومن الواضح اننا ، ونحـــن نسابق الزمن ، لنتقلب على قرون من التخلف ، وطبقات كثيفة مـــن الرواسب الاجتماعية ، لا نستطيع ان نترك الامور تاخذ مجراها لينمـــو الشعور بالمسؤولية نموا بطيئا ، وقد يخطىء وقد يصيب ، وقد يسرع وقد يتعثر . وانما يجب ان تقوم توعية الشعور بالمسؤولية على اسس علمية مضبوطة ، ترسم لها سبلها الايجابية ، وتوجهها التوجيه السليم الذي ينمي ويغذي شخصية المواطن الصالح المنتج .

ولكي نتعرف على الوسائل التي يجب اتباعها لا بد لنا من وقفة قصيرة نستظهر فيها اهم اسباب ما يعانيه الفرد العربي مـــــن تخلف حقيقي في تقدير المسؤولية . ولا يفيدنا في مرحلة البناء ان نجاهل او نتجاهل ما في انفسنا من عيوب ، لان طريـــق الاصلاح لا يستطيع ان يبدأ الا اذا عرفت العيوب على حقيقتها . لا شك في ان الوعي فـــي الاوساط العربية قد بدأ يشق طريقه بقوة وتصميم ومع ذلك فهو مـــا زال في حاجة الى التغذية والتنمية بحيث يكون وعيـــا مستمرا ، لا آنيا ، خلاقا ، لا هواما ، وعيا يعمل دون حاجة الى تحريك » .

من آثاره القلمية : نشر الدكتور القاسم عشرات المقالات القانونية والابحاث البترولية في مجلة Modern Law Review الانجليزية و Canadian Bar Review الكندية و World Petroleum الامريكية كما نشر عددا من المقالات الفكريـــة والقوميـــة والدراسات البترولية في الصحف والمجلات العربية ومنها مجلة « فلسطين » التي تصدر في بيروت ومجلتا « الرائد » و « العربي » اللتان تصدران في الكويت وجريدتا « الرائد » و « طرابلس الغرب » اللتان تصدران في ليبيا وجريدة « اخبار فلسطين » التي كانت تصدر في غزة حتى اوقفها العدوان الاخير واعني به عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

وزود الدكتور « انيس » الخزانة العربية بطائفة من الكتب التـــي صدرت وفي مقدمتها :

١ ـ معنى الحرية في العالم العربي ـ صدر في عام ١٩٥٤
٢ ـ من التيه الى القدس ـ صدر في عام ١٩٦٥
٣ ـ نحن والفاتيكان واسرائيل ـ صدر في عام ١٩٦٦
٤ ـ الاعداد الثوري لمعركة التحرير ـ صدر في عام ١٩٦٧

(١) من مقال نشرته مجلة (العربي) الكويتية في العدد (٦١)

عمان ـ الاردن — البدوي الملثم

فندق مطعم ومقهى

قصة

بقلم عبد الحميد الانشاصي

كان رؤوف يسير في بطء متأملا العمارات والحوانيت ومتلفتا حواليه وهو يسرح نظرات مستطلعة هنا وهناك كالابله . لم يلفت اليه نظر احد من المارة ، ولم يكترث له احد منهم . خطاه ضالة لا تعرف اتجاها معينا . وكذلك عيناه الحركتان . لباسه وهيئته لا يدلان على حقيقته . لباسه عادي وهيئته عادية . انهما لا يدلان على ان صاحبهما غني او موظف كبير او فقير يبحث عن عمل .

(انه رجل غريب قدم المدينة منذ شهر . انه ذكي يحمل مخا مشبعا بطاقة كبيرة من التفكير . لا يدل مظهره على مخبره . بسيط في ثيابه ، عظيم في نفسه ، قانع في هدوئه، طموح في تفكيره. حينما كان يقلب عينيه في العمارات والحوانيت كان يقلب ذهنه في الاعمال والتجارة) .

تجول في ارجاء المدينة جميعها : في الشوارع الواسعة المنظمة ، والازقة الضيقة المتعرجة . في الاحياء الحديثة الشارحة للصدر، وفي الاحياء القديمة الرادة للبصر. اطلع على الحركة التجارية في الاسواق ، ودس نظراته المستطلعة في كثير من الحوانيت الكبيرة والمقاهي البارزة والمطاعم الشعبية منها والراقية . كان ينظر الى كل شيء دون ان ينظر اليه احد . ولم يتساءل احد: من هذا الرجل ؟ وماذا يريد ؟ والى اين هو ذاهب ؟ كان نكرة بين معارف ، لا يلقي التحية ولا يصافح ولا يتحدث ولا يعبس ولا يبتسم كانه ليس من اولئك الناس الذين يروحون ويغدون من حوله ويحيون ويتصافحون ويتحدثون ويضحكون في الطرق والاسواق . ان اولئك الناس لا يعنونه ولا يلفتون نظره . همه ان يطلع على الحوانيت والمقاهي والفنادق والكراجات والمصانع والمطاعم والمكاتب ، كأن المدينة خالية من السكان ، او كأن سكانها لا قيمة لهم في نظره . وهو يسير في نشاط غريب لا يمل المشي ولا الاستطلاع . واذا احس في بعض الاحيان بتعب في رجليه عرج على مقهى وجلس فيه . ولكنه لا يكتفي بالاستراحة على كرسيه بل يجيل بصره في انحاء المقهى مستطلعا دارسا . واذا اراد ان يتناول طعامه في الصباح او الظهر او المساء انتقل من مطعم نظيف بعض الشيء الى مطعم قذر، ومن مطعم راق بعض الشيء الى مطعم شعبي . ومتى اراد ان ينام تنقل من فندق الى اخر مقارنا مختبرا .

زوجته يسرى وابنته عديلة تقيمان في مدينة اخرى . وهو يتردد الى منزل الاسرة من حين الى آخر . لم يستقر في حياته العائلية بعد . ما زال قلقا باحثا . زار من قبل عدة مدن واطلع على محالها التجارية كما يطالع المثقف كتبا مختلفة لمؤلفين متبايني المواهب . وهو لم يفعل ذلك حبا للاستطلاع بل سعيا لتحقيق هدف له . وهو الآن يريد ان يقوم بعمل ، ولكنه يجهل ذلك العمل . يريد ان يغامر ، ولكنه يأبى ان ينفق ماله في سبيل شيء لا يقوم على اساس من امعان الفكر .

مضى شهر آخر وهو يدرس المدينة واحوالها . واخيرا استقر رأيه على فكرة واحدة أبى ان يتحول عنها الى غيرها : ان يستاجر عمارة ضخمة يفتح فيها فندقا ومطعما ومقهى ، فقد تبين له ان المدينة بحاجة شديدة الى هذه المحال . لم يجد في المدينة فندقا راقيا ولا مطعما فاخرا ولا مقهى ممتازا . فرأى ان يجمع بين هذه المحال الثلاثة .

استاجر عمارة ضخمة انيقة تقع على الطريق العام في موقع جميل يمر به كثيرون من الناس . انها مشرفة على حدائق زمردية الخضرة ، وعلى سهول واسعة مزروعة بالخضروات . وامامها السيارات تروح وتغدو . الطبقة العليا منها اتخذها فندقا ، والطبقة الوسطى مطعما ، والسفلى مقهى . وقد نبتت في ساحة المقهى اشجار من الكلبتس تتمايل فروعها الفنية بالاوراق بين يدي الهواء كما تتحرك المراوح على الوجه المحرور صيفا ، وتبسط من ظلالها سجادات خفيفة على الساحة فتبدو كالسحب الانيقة. وقد انتثرت في جوانب الساحة احواض حدقت ازهارها المتفتحة الى السماء كما تحدق النجوم ليلا الى الارض .

كل ما في العمارة مرتب ونظيف وانيق : السرر والكراسي والطاولات والصحون والكؤوس والملاعق والشوكات . الطعام شهي لذيذ ، وكذلك مختلف المشروبات . ومع ذلك فان الناس لا يترددون الى هذه العمارة . مضت بضعة اسابيع وهي خالية من حركات الناس مع انهم في حاجة شديدة اليها . غير ان رؤوفا لم ييأس . انه مؤمن بنفسه واثق بصحة رأيه مؤكد انه لا بد ان يصل الى هدفه ويحقق امانيه . وهو على يقين بانه لم يخطىء في اقدامه على تنفيذ ذلك المشروع الهام . لذا لم يتردد في نقل زوجته وابنته الى جانب من تلك العمارة .

بعد مضي شهرين بدأ الناس يترددون الى العمارة . اخذ الموظفون يجلسون عند العصر في المقهى ترويحا عن نفوسهم المكدودة واعصابهم المرهقة ، وراح ذوو المصالح من التجار الغرباء يبيتون في فندق العمارة بعد ان كانوا يقضون لياليهم في منازل اقربائهم او اصدقائهم من اهل المدينة ، ويتناولون طعامهم في مطعم العمارة الفخم بعد ان كانوا لا ياكلون الا كبابا وهو خير ما يعرض من الاطعمة في سوق المدينة .

وجعل ركاب السيارات المارة في المدينة يعرجون على العمارة ويتناولون فناجين من القهوة او الشاي او كؤوسا منعشة لنفوسهم بعد سفرهم الطويل .

وهكذا دبت الحياة في العمارة ـ في فندقها ومطعمها ومقهاها . وانشرح صدر رؤوف بعد انقباضه شهرين ، وايقن انه سيجمع من مشروعه ثروة ضخمة تجعله يعيش في رفاهية ونعيم .

★

ولما لاحظ أنيس وفريد صاحبا العمارة ما اصاب رؤوفا من التوفيق راحا يزورانه من حين الى آخر معربين له عن غبطتهما بنجاحه وبازدهار مشروعه ، وتمنيا له مزيدا من التوفيق والنجاح .

(انهما يحسدانه على ما أسبغ الله عليه من نعمة، ويتمنيان لو انهما في مكانه يديران الفندق والمقهى والمطعم . فهما يعتقدان انهما اولى منه باستثمار هذا المشروع الكبير لكونهما صاحبي العمارة) .

ـ يا أنيس كيف لم يخطر في بالنا هذا المشروع من قبل ؟ لقد كانت العمارة بين ايدينا ، وكان في امكاننا ان ندير فيها فندقا ومطعما ومقهى . هل كنا اعميين في ذلك الحين ؟

(ان رؤوفا ليس اذكى منا ولا اكبر عقلا. لقد الهتنا تجارة البقالة عما هو اكثر ادرارا للمال منها) .

– يا اخي ان التوفيق من الله . هذا ما كتب على ذلك الرجل . هذا نصيبه .

(لا شك انه عميق التفكير صائب الراي دقيق الملاحظة . لقد عرف ما تحتاج اليه مدينتنا وهو فندق فخم ومطعم فاخر ومقهى مريح . وقد جمع بين هذه المحال في مكان واحد) .

– لقد خطرت في بالي فكرة .

(لا تكن غبيا قانعا . كيف نترك ذلك الرجل الغريب يستعمل عمارتنا ونحن نحدق اليه في بله وعجز ؟)

– ما هي ؟

– ان نخرج رؤوفا من عمارتنا ، ونقوم نحن بادارة الفندق والمطعم والمقهى .

(يجب ان نفعل ذلك والا كنا اضحوكة الناس وموضع احتقارهم) .

– نخرج رؤوفا من العمارة ! كيف ؟ ليس في امكاننا ان نفعل ذلك يا فريد . كيف نخرجه وهو مستاجر قديم والقانون يحميه ؟

(ولم نتعدى على غيرنا من الناس بلا سبب ؟)

– لا تكن ضعيفا يا انيس . ينبغي لنا ان نسعى ونتآزر حتى نتغلب على المستأجر .

(ان القوة هي القانون في هذا العصر . فلا تخش القانون يا غبي) .

– لا يا فريد . ان اعتدينا على المستأجر انهال الناس علينا انتقادا وذما .

(ما لنا ولرؤوف ؟ نحن في نعمة والحمد لله) .

كاد فريد ينفجر غيظا من اخيه . حرق الارم ، وانبعث بريق صاعق من عينيه الساخطتين المندلقتين . وانطبقت شفتاه في عزم وحزم واصرار . واشتدت اعصابه في شجاعة وقوة . ولبس وجهه قناع الجد فبدا لانيس وجها اخر لرجل غريب وليس لاخيه ، وشعر ان أخاه سيطر عليه بارادته ووجهه الوجهة التي ارادها .

(اصوات من الداخل : اصغ الي يا انيس . اترك ذلك الامر لي . انا الذي اعرف كيف اتصرف . اما انت فطفل . انك عالة علي في كل شيء . افاهم أنت ؟ انا أعرف كيف اتغلب على المستاجر . ان رؤوفا رجل غريب لا سند له ولا أسرة تحميه . اما نحن فاسرتنا كبيرة ومعروفة . لا بد ان نسحقه ونخرجه من عمارتنا) .

(منظر في الداخل : يمسك فريد اذن اخيه ، ويجره اليه في قوة وهو يحدق الى عينيه تحديقا مخيفا . فينقاد انيس له ويرضخ لامره) .

★

فاتح انيس وفريد رؤوفا بامر اخلاء العمارة لهما بحجة السكن فيها . وكانا في اثناء حديثهما يرسمان على وجهيهما ابتسامات لامعة لمعانا يشبه لمعان الشريط القاتل للحشرات . وكانت نغمة حديثهما معسولة هادئة هدوء موج البحر العميق ، ولطيفة رخوة كالهواء الذي يسبق العاصفة . ولكن رؤوفا رفض ذلك في جد وحزم ملأ قلبه الكبير واسارير جبهته وتقاطيع وجهه التي نقشتها يد الزمان ويد التفكير العميق . وكان من وقت الى اخر يقول لهما في صراحة وجراة :

– لا ، لا . هذا محال .

(قوما ! انصرفا ! انني لست غبيا حتى اتخلى عن العمارة لكما بعد ان بذلت فيها دم قلبي وعرق جبيني مدة طويلة . انا مبتكر هذا المشروع . لماذا لم تبتكراه قبلي ؟ ان كنتما ذكيين فابتكرا مشروعا اخر مثله) .



عبد الحميد الانشاصي

●

وكانا يقولان له بنظراتهما الساخطة المنذرة :

(نحن صاحبا العمارة . نحن اولى بها منك . وسناتي المستحيل لاخراجك منها سواء أرضيت ام لم ترض) .

وبعد مضي بضعة اسابيع على هذه المحادثة اتفق ان كان رؤوف جالسا مع زمرة من اصدقائه في مقهاه . وقد جلس بين اصدقائه فريد وانيس . وكان موضوع حديثهم البيع بالجملة . وكان رؤوف يرى ان باعة البضائع بالجملة هم الذين يستغلون ضعف البقالين العاديين ويربحون منهم مالا جزيلا. وبما ان فريدا يبيع في بعض الاحيان بضائع بالجملة بالاضافة الى بيعها في بعض الاوقات بالمفرق – اخذ يسخف رأي رؤوف ويصيح قائلا بنغمة حادة مهاجمة :

– من انت حتى ترى هذا الرأي ؟ لقد كنت في الامس رجلا مهملا لا شأن له . واصبحت اليوم تدعي المعرفة بشؤون التجارة كانك خبير بها .

(اسكت والا حطمت رأسك وكسرت عظامك !)

(منظر في الداخل : يهوي فريد بهراوة على رأس رؤوف فيفقده وعيه ويقع على الارض) .

وعاونه اخوه انيس بقوله لرؤوف :

– اترك امر البيع بالجملة لاهله فهم ادرى به منك . وانت غريب لا تعرف طباع اهل هذه المدينة .

(انصحك ان تستسلم والا تكون عنيدا).

ولكن رؤوفا ما زال عنيدا ومعتدا برأيه دون ان يحسب حسابا لثورة الاخوين وقال معتزا :

– ان لي خبرة بكثير من الاعمال فقد تقلبت في الوان كثيرة من التجارة ، ورأيي صائب بلا ريب .

(انني افهم ما تعنيان ، ولكنكما لن تتغلبا علي وان كنتما اثنين وأنا واحدا) .

(منظر في الداخل : يلكم رؤوف صاحبي العمارة فيقعان ميتين) .

وفي ذات يوم كان رؤوف قادما من مدينة كبيرة بعد ان اشترى منها حاجاته التي لا توجد في المدينة التي يقيم فيها . وكان راكبا باصا . وسائق الباص معروف بشراسة الخلق وغلظ الطباع . وهو ابن عم فريد وانيس . وقبل ان يصل الباص الى كراج المدينة ضغط رؤوف الجرس ليترجل . فتوقف الباص ، وهم رؤوف بالنزول ، فوضع قدما على الارض ، وقبل ان يرفع القدم الاخرى عن قاعدة الباص قاده السائق متعمدا . فوقع رؤوف على الارض واصيب بجروح ، وادرك ان السائق تعمد ان يوقعه على الارض فهو يعلم انه ابن عم صاحبي العمارة . ولكنه ما زال مصمما على مقاومة انيس وفريد على الرغم من مؤامرتهما .

وفي احدى الليالي الحالكة كان رؤوف عائدا من السوق الى منزله . وفي اثناء الطريق ظهر له عند مفترق زقاق ضيق وشارع عام رجل غريب لم يتبين ملامح وجهه جيدا . وصاح الرجل في وجهه قائلا بصوت أجش قوي :

– لماذا ضربت ابني يا حيوان ؟ هه !

وهوى عليه بهراوة ثقيلة بضربات حطمته واسالت الدم من رأسه وذراعيه وظهره . فارتمى على الارض فاقد الوعي . ومر به رجال ، فلما وقعت انظارهم عليه عطفوا عليه

وحملوه الى سيارة كانت مارة في الطريق العام . وهذه اقلته الى مستشفى المدينة .

ولما استرد رؤوف وعيه فكر في الاعتداء الذي جرى له في الزقاق ، وهداه تفكيره الى الحقيقة وهي ان فريدا وانيسا هما اللذان اوعزا الى ذلك الرجل الغريب بمهاجمته والاعتداء عليه . غير انه لم يتزحزح قيد انملة عن اعتزامه المضي في مقاومة خصميه حتى يخضعهما لارادته .

وحينما عادته زوجته وابنته في المستشفى اضطر الى مكاشفتهما بأمر الاعتداء عليه ، واطلعهما على المؤامرات التي دبرها صاحبا العمارة ضده بعد ان كتم امرها في صدره اشهرا دون ان يلمح بشيء اليها امامهما ، واعلمهما انه مصمم على احباط اية مؤامرة يدبرها خصماه بما أوتي من قوة الارادة وصلابة العزيمة .

ولكن زوجته وابنته فكرتا في الامر كثيرا بغية الاهتداء الى حل لهذه المشكلة لكي تنقذا رب الاسرة ، فانهما تحبانه وتخشيان ان تقضي مؤامرات صاحبي العمارة عليه .

★

خرجت عديلة لزيارة عبير أخت صاحبي العمارة . وهي احدى صديقاتها اللواتي كثيرا ما اجتمعت بهن في منازل صاحباتها . وعديلة ذات حركات زائدة على حركات اية فتاة في سنها ـ حركات نشيطة فاتنة مغرية . وقد سرى النشاط لا في حركات جسمها فحسب بل في لسانها أيضا ، اذ كثيرا ما ينطلق باحاديث وان كانت في بعض الاحيان غير هامة ولا شائقة الا ان نغمة النطق بها تكسبها حلاوة وطلاوة تذهلان سامعها . وحينما اطلعت صديقتها على كيد اخويها والحاحهما على ابيها في اخلاء العمارة استمعت عبير اليها في اهتمام واقتناع .

ـ حبيبتي عبير ! انني ما كنت اتوقع ان تنشأ خصومة بين اخويك وابي ، فانت صديقة عزيزة علي ، واسرتك صديقة لاسرتي .

(اخواك جريئان لا يفكران في العواقب . فاقنعيهما بضرورة العودة الى الصداقة) .

ـ لا تخشي شيئا يا عديلة . ان اخي فريدا عصبي المزاج ، ولكنه سرعان ما يعود الى الرزانة والهدوء . وانا كفيلة برده عن طيشه .

فابتسمت عديلة ، وتمايلت في دلال قائلة بنغمتها الحلوة التي كسبت صديقاتها:

ـ عهدي بفريد انه شاب رزين . انه شهم وحسن السيرة وحميد الاخلاق . فكيف لجأ الى العنف واغضب أبي ! انني على يقين بانه لا بد عائد الى ما كان عليه من الصداقة والمحبة .

(انني احبه . وقد لاحظت انه يكتم لي حبا وان لم يتظاهر بذلك . هل نسي ان الذي عاداه هو أبي ؟)

ثم اطلقت تنهدة حارة طويلة ، ورقص حاجباها الدقيقان مع بريق اعجاب انبعث من عينيها اللتين ازدادتا جمالا بالابتسامة الفاتنة التي امتلاتا بها ، وقالت بنغمة مهموسة :

ـ انه شيطان ! خبيث ! الى أي شيء يرمي من وراء هذا العنف الذي عامل به أبي ؟

(ما اجمله ! انه يتدفق شبابا وحيوية . اني احبه . أليس زواجه بي خيرا من هذا العنف ؟ مرارا أملت ان يخطبني الى أبي).

ثم هزت رأسها في دلال والابتسامة ما تزال ترترف بين حاجبيها . وقالت عبير وعيناها عالقتان بتلك الابتسامة ، وقد انعكست ابتسامة صديقتها على عينيها هي :

ـ سأنبئه بكل شيء . سأطلع فريدا على حقيقة الامر . لا شك انه نازل على رغبتك يا حبيبتي . انه طيب القلب ، ويمكن التفاهم معه في سهولة .

(انه لما يسرني ان يتزوجك اخي فريد . ان فتاة مثلك في امكانها ان تسعده وتهديه الى الصواب) .

والقت يدها في لطف على فخذ صديقتها . تركتها هناك مدة طويلة حتى شعرت عديلة بدفئها ونبضها .

ـ لا يا يسرى . محال ان ازوج فريدا بابنتي . انه خصمنا فكيف يناسبنا ؟

(أنا لا اخضع لارادته . لقد صممت على مقاومته والتغلب عليه) .

ـ حبيبي رؤوف ! ان عديلة تحبه وهو يبادلها الحب .

(لا تقف حجر عثرة في سبيلهما) .

ـ ماذا تقولين ؟ عديلة تحبه ! تحب من ائتمر بي ؟

(لا بد من صفعها لكي يعود اليها صوابها)

ـ لقد مضت المؤامرة وتغير كل شيء ، وعادت اسرة صاحبي العمارة الى ما كانت عليه من الصداقة معنا .

(لا تكن عنيدا . ان في ذلك نفعا لنا . اخشى ان تقتل) .

فكر رؤوف مليا ، ثم التفت الى زوجته قائلا :

ـ هل انت التي دبرت هذه الخطة ـ خطة الزواج لكي تردي شر صاحبي العمارة عني ؟

(لا ، لا . لن اخضع لهما . انني لست ضعيفا مذعنا) .

والقت يسرى رأسها على صدر زوجها ، وقالت بنغمة استعطاف :

اريد موافقتك على الزواج عطفا على ابنتنا فهي تحب فريدا .

وبعد برهة انبسطت اسارير رؤوف ولم يتكلم .

عمان عبد الحميد الانشاصي

واحة الظمآن

★

أي اللحون ترنحت سكرى على شفة الهزار
فأهاجت الشوق الدفين بقلب صب مستطار
يا نشوة الاعراق هلا عودة تطفي أواري
اني هنا افتنات من سأمي المرير ووهم ثاري
واهم في ذكرى صباباتي واحلام انتصاري
عل الذي قد مر يرجعه حنيني واصطباري
يا واحة الظمآن من بعد التشرد في البراري
هلي علي وجدي أيام حبي وأدكاري

بغداد عبد الخالق فريد

مي الجديدة

الى الزميلة الشاعرة الاستاذة روحية القليني .. بمناسبة انتخابها عضوا في لجنة الشعر، بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة

★

أندوة الفن أم روح وريحان   للشعر فيها وحسن القول ميزان ؟
يهفو اليها فؤادي كلما سنحت   له الى الفكر اشواق وأشجان
ألحانها الشعر والآداب راقية   فما سواها لهذا القلب ألحان
هناك أسمع من روح .. قصائدها   غراء ، كم ضمها كالروض ديوان
أبيت أصغي الى (الانغام حالمة)   فيها من العطر تطريب ، وتحنان (١)
وحين يسري (عبير القلب) يشملني   من الشذا، وجمال الورد .. بستان (٢)
أما الجديد فقلبي بات يرقبه   وكم يجود به طبع ووجدان
على هدى الصدق في الاحساس ترسله   مبرأ النظم لم تخطئه أوزان
فيه العروبة والاعراب قد جمعا   فتم بعدهما حسن واحسان
ثوب من الحق تكسوه خلائقها   فالنسج ذو روعة ، والسحر فتان

مي الجديدة .. تدعوني لندوتها   صالونها من بديع الفن ألوان
في مجلس بجلال الفكر متسم   له الفضائل والآداب أركان
وكل من أمه مثلي يصافحه   فضل وعلم واخلاق وايمان
من كل شاعرة تزهو الحياة بها   او شاعر ذكره في الدهر رنان
تدير فيهم حديثا تنتقيه لهم   حرا ، كما ينتقى در ومرجان !

يا روح .. هذا قصيدي كله ادب   وفي ثناياه تقدير وشكران
فأكمليها الى محمود غايتها   رسالة زانها حسن واتقان
كم ذات فضل على التاريخ تذكرها   بها تعز رسالات ، واوطان
بلغت ما بلغت ، بل فقت منزلها   ان النجوم تسامى وهي جيران
وصرت نابغة في الشعر ما كتبت   الا وفي شعرها بالسبق برهان
ولجنة الشعر .. صح اليوم مجلسها   لما غدت بحديث منك تزدان

ان قصر اليوم تبياني فلا عجب   فلن يوفي هذا الفضل تبيان
رسالة بعد شوقي بات يحملها   في دولة الشعر ابطال وفرسان
ان الامانة ثقل ليس يحمله   الا وفي ، كبير القلب ، انسان !

---

(١) انغام حالمة : ديوانها الثاني . (٢) عبير قلب : ديوانها الثالث

مصر الجديدة

عامر محمد بحيري

مكتبة الاديب

فتح الله الصقال الرائد الانساني الكبير

تأليف البدوي الملثم ـ (؟) صفحة ـ منشورات مجلة ((الضاد)) بحلب ـ مطبعة ((الضاد)) بحلب

أهداني صديقي الاديب الناقد الاستاذ البدوي الملثم ((يعقوب العودات)) كتابه القيم ((فتح الله الصقال الرائد الانساني الكبير)) ، فلم يفاجئني افتقاد الصديق اياي بهديته الممتعة ، لانني عرفته قمة من قمم الوفاء .

وقد سرني الهدف النبيل الذي رمى اليه المؤلف من تدبيج صفحات كتابه ، ليحمل الناس ، الذين اغدق الله تعالى عليهم نعمة الثراء ، على الاقتداء بالمحسن الكبير الاستاذ الصقال . وتلك لعمري بادرة حسنة ، بادرة الثناء على الاحياء ، وتمجيد اعمالهم ليروا الوفاء الذي يكنه لهم ابناء قومهم ، والاعتراف بالجميل الذي أسدوه الى وطنهم سياسيا ، وفقرائه اجتماعيا، مع اننا اعتدنا ان لا نكرم رجالاتنا العظام الا بعد ان يقضوا نحبهم .

لقد كنا في سالف الازمان سادة العالم في الجود ، وايثار الآخرين على انفسنا ، ثم تقلص ظل هذه الميزة في عصور الانحطاط والاستعمار ، حتى بلغنا عصرنا المادي هذا ، الذي غبر على جميع العصور العالية السالفة ، من حيث الشح ، والانانية ، والشره المادي . وعندما نرى محسنا مخلصا كالاستاذ فتح الله ، فان الوفاء يدعونا الى الاطناب في ذكر مبراته ، لانه قطع نادر في احسانه ، ودرة يتيمة في اخلاصه لضميره الحي اولا ، ولاصدقائه والمعوزين من بني قومه ثانيا ، ولكل انسان معذب في هذه الدنيا الغدارة ثالثا .

ويبدو لي ان الاستاذ يعقوب العودات رأى الحقد الاسود المتمكن من نفوس جل المعاصرين ، ورأى عيونهم التي تنظر الى العيوب الصغيرة بمجهر فتضخمها ، وتغمض الجفون حتى لا ترى الحسنات الكبيرة ، فآلى على نفسه السمحة الكريمة ليضخمن جميع الحسنات كبيرها وصغيرها حتى جنينها ، وليغفضن النظر عن جميع السيئات ، نكاية بالحساد اللئام ، وارضاء لنفسه الكريمة الخيرة ، مثبتا قول الشاعر : وكل اناء بالذي فيه ينضح

وأنا أخالفه في ذلك التطرف في الاطراء كما أخالف المسرفين في الذم ، وقد فرض علينا النقد الادبي ، الذي اصبح علما قائما بذاته ، ان نذكر الحسنات والسيئات كما يراها العقل النير ، والضمير الحي دون ما زيادة او نقصان ، شأننا في ذلك شأن القاضي العادل الذي يزن الاحداث بقسطاس دونه ميزان الصيدلي الحساس .

والاستاذ البدوي الملثم يستوحي قلبه الكبير الضخم في كل ما يكتب اكثر جدا مما يستوحي لبه ، مع انني لا أشك ابدا في انه يعرف كثيرا من الهنات في كثير ممن ترجم لهم في مؤلفاته او مقالاته المتسلسلة في مجلة الاديب الغراء ، ولكنه يتظاهر بانه لا يرى . واذا قبلنا هذا من اصحاب النفوس الكريمة في حياتهم الاجتماعية ، فاننا لا نقبله منهم في نقدهم الادبي ، وتاريخهم للادب . كما اننا لا نقبل النقد الجارح المر الذي يتغاضى صاحبه عن جميع الحسنات كما فعل الاستاذ عباس محمود العقاد مع شوقي ومصطفى صادق الرافعي ، وكما فعل ابراهيم عبد القادر المازني مع مصطفى لطفي المنفلوطي .

ان التناهي غلط   خير الامور الوسط

وللكتاب ثلاث مقدمات : الاولى ((تصدير)) بقلم صديقي الاديب الشاعر الاستاذ عبد الله يوركي حلاق ، صاحب مجلة ((الضاد)) الحلبية ، واحد قليلين من الادباء الذين قضوا حياتهم يتغنون بالعرب والعروبة باخلاص عجيب ، ووفاء نادر. والثانية ((المقدمة)) الرئيسية بقلم شاعر الاهرام الاديب الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، الذي كانت اجادته فيها دليلا على قدرته ، ولباقته، وبراعته في اقناع القارىء بما يراه من آراء ، ومع ذلك ، فانا لا أرى رأي المؤلف في جعل غيره ـ من أصدقائه طبعا ـ يكتبون المقدمات لكتبه ، اذ من المستحيل أن يعرف اذكى الناس حسنات أي كتاب وسيئاته كما يعرفها مؤلفه ، وهل يعرف الصلصال الذي صنعت منه تماثيل الفخار اكثر من الفنان الذي جبلها بعرق جبينه ، وواصل من اجل اتمامها عمل ليله بنهاره .

ثم لماذا نفرض على القارىء حكمنا على كتاب ما ، ولا ندعه يكتشف بنفسه حسناته وسيئاته ؟ فاذا اردنا ان ندل القراء على حسنات مؤلفاتنا ، علينا ان نكتب مقدماتها بانفسنا ، ونشير الى الحسنات تلميحا لا توضيحا ، والا كنا ممن يسيئون الظن في ثقافة القارىء وذكائه . لذلك درجت على كتابة مقدمات دواويني وكتبي جميعها بنفسي حتى لا تضل أذهان القراء سواء السبيل ، وحتى اطلعهم على الجهد الذي بذلت ملمحا الى الحسنات ، تاركا المساوىء ـ اذا وجدت ـ الى ذكاء القارىء ، وفطنته ، وذوقه الادبي الرفيع .

ومن ناحية أخرى ، يتطلب الذوق من كاتب المقدمة أن يثني الثناء المستطاب على مؤلف الكتاب ، سواء أكان الكتاب قيما ، او كان غثا هزيلا كعشرات الكتب التي تتقيؤها مطابعنا شهريا في هذه السنوات العجاف . والمقدمة نوع من أنواع الدعاية ، وكلمة ((دعاية)) أصبحت تحمل معاني كثيرة الآن ، منها ، الغش ، والخداع ، والتمويه. وهذا ما جعلني أشفق على صديقي الاستاذ البدوي الملثم ، لان الناس قد يظنون ان كتابه القيم مثل بعض الكتب الهزيلة الاخرى ، مع انه لو أزال لثامه ، وسفر عن وجهه الصادق الامين ، وكتب مقدمات كتبه كلها بنفسه لخرج رافع الرأس ، ناصع الجبين . هذا رغم ان مقدمة كتابه ((فتح الله الصقال)) ، قد دبجتها يراعة الاديب العربي الكبير الاستاذ محمد عبد الغني حسن شاعر الاهرام وعضو لجنتي الشعر والنثر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب في القاهرة .

ولئن شذ الشاعر عزيز اباظة عندما قدم كتاب ((الشعر العربي في المهجر)) للاستاذ محمد عبد الغني حسن نفسه ، وخالف رأي المؤلف في شعراء المهجر ، واظهر ضعف السبك والبلاغة عندهم ، فان هذا شيء نادر ، والنادر لا يقاس عليه .

ثم تأتي المقدمة الثالثة للكتاب بقلم مؤلفه الاستاذ العودات ، وكان في الوسع الاكتفاء بمقدمة واحدة مركزة ، ومختصرة في بضع صفحات بدلا من تسع عشرة صفحة .

ثم تأتي مادة الكتاب الذي اجادت مطبعة الضاد اخراجه اجادة تامة ، وقل التطبيع فيه قلة تلفت النظر بين الكتب العربية الحديثة.

ثم يشرع المؤلف الذي مرن على كتابة التراجم في سرد تاريخ حياة الاستاذ الصقال بلغة أنيقة ، وعبارة منمقة ، واسلوب رقيق هو السهل الممتنع الذي يخيل الى المرء انه يستطيع الاتيان بمثله لسهولته، وعند التجربة يكون نصيبه الاخفاق .

أما تبويب الكتاب فقد كان رائعا يزاحم بـــه مؤلفه أمهات كتب التراجم التي بين أيدينا ، ويضع كل جملة في الباب الذي خصصت له ، دون ان تتطفل على باب آخر ، او تعتدي عليـــه اعتداء شذاذ الآفاق على فلسطين الحبيبة .

وفي فصل « الصحافي القانوني » والصواب « الصحفي » لاننا ننسب الى المفرد ، في هذا الفصل أحسن المؤلف كثيرا في ذكر تاريخ المحاكم المختلطة في مصر ، واقتصر على ذكر محاسنها جريا على عادته من الاكتفاء بذكر الحسنات ، وكنت انتظر منه سرد بعض مساوئها ، لانها اكثر من ان تحصى ، ليعرف الناس أية مصيبة دهياء كانت تحل بمصر في ذلك الحين ، وليطلعوا على احدى جرائيم الاستعمار الفتاكة التي تلقيها لتقيم بين ظهراني الشعوب لتفتك بها فتكا ذريعا ، مع انها انتدبت لاقالة عثرة الشعوب ، والاخذ بناصرها ، والسير بها قدمـــا نحو الاستقلال والحرية والمجد .

أما فصل « فتح الله الصقال في ميدان العمل الوطني » ، فقد وفاه المؤلف الدقيق حقه بشكل رائع ، واستنفد كل جهده في ابراز جميع نواحي وطنية الصقال ، كما كـان الشاعر ابـن الرومي يستنفد المعنى الذي كان خياله المجنح يصطاده مـــن جميع الجهات ، بحيث لا يدع زيادة لمستزيد . واعجبني من هذا الفصل سرد محاكمة المجاهد العربي الخالد الذكر ابراهيم هنانو ، كما رواها الصقال ، بدقة تامة وامانة تاريخية . وهي – لعمري – محاكمة رائعة تبرز بطولـــة ثائرنا العظيم ، وتحمل كل مخلص لعروبته ووطنه على ان يحذو حذو هنانـــو المملاق ، تلك المحاكمة التي يجب ان يطالعها كل مثقف لما فيها مـــن دروس قيمة في القانون، والوطنية ، والجرأة في قول الحق والدعابة.

وكنت أود لو لم يذكر المؤلف جزءا من مرافعة الصقال في الدفاع عن هنانو باللغة الفرنسية ، وما دام قـد اختار ذكرها ، كان عليه ان ينقلها مترجمة الى العربية ، ليطلع القارىء الذي يجهل الفرنسية ، على بلاغة المحامي ، وذكائه ، وتضلعه من القانون ، هذا مع العلم بأن اللغة الفرنسية بدأ ظلها ينحسر قليلا قليلا عن العالم العربي ، لتحل اللغة الانكليزية ، لغة الدولار والاسترليني ، محلها .

وقد فاز باعجابي الفصل الذي يسرد فيه المؤلف بر الاستاذ فتح الله الصقال واحسانه ، وكيف نجحت مساعيه فــي تشييد مأوى العجزة ذي الطبقتين ، ودير كرمل عذراء سيدة سورية ، ومستشفى الكلمة ذي الطبقات الخمس في بلده الشهباء ، بل بلدي وبلد العرب جميعا ، لخدمة المحتاجين من ابناء قومه ، دون ما نظر الى طائفة ، او حزب ، او ملة . ولو وجد في كل بلد عربي اثنان مثل فتح اللـــه الصقال نشاطا واخلاصا وكرما ، لمـــا وجد في البلاد العربية كافة محتاج واحد لا يجد المعونة تسعى اليه سعي ديمة القطر الـــى المهمه القفر ، ولا مريض لا يجد العلاج ، ولا بائس يبحث عمن يخفف احزانه وبؤسه ، ويكفكف دموعه ، ويزيل يأسه .

وفي فصل « الصقال المصلح الاجتماعي » ، أورد المؤلف القدير أقوالا للمحامي الفذ فتح الله الصقال تدل على بعد نظره ، ومحاربتـه التفريق بين الاديان ، وحملاته الشعواء لازالة الفروق بين الطبقات . فمن أقوال الاستاذ الصقال الخالدة قوله :

« ان الشقاء لا دين له .

ما ذنب الفقير اذا أبصر النور بين أحضان دين من الاديان !

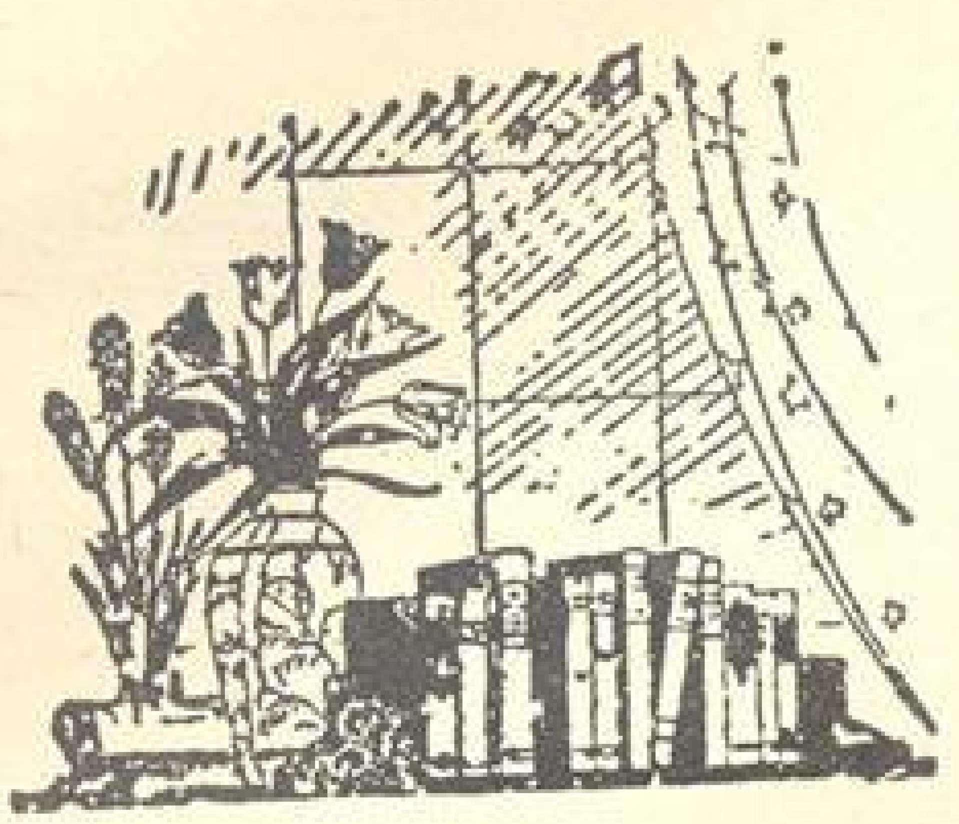
نحن لا نعبأ بالطائفية والحزبية والجنسية .

على الانسان ان يساعد أخاه الانسان مهما كان بينهما مـن تباين في العقائد والجنسيات .

ألا تلتقي جميع الاديان في منعطف واحد، وتسير الى هدفواحد؟

نحن نعطف على العاجزات والعاجزين كل العطف ، ونرغب فـي أن يضمن لهم المستقبل ، ليس باسم الشفقة والرحمة فحسب ، بـل باسم الحق والواجب أيضا » .

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

فـي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب – صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت – لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البيـر اديب

وفي نهاية هذا الفصل الانساني القيم ، ينزلق المؤلف الى هوة المبالغة المتطرفة المتشائمة ، فيقول :

« ان فتح الله الصقال هبة من هبات الله للوطن العربي الكبير، وأغلب الظن أن الزمان بمثله لبخيل على العالم العربي ، واذا سخا عليهم بمثله ، كان ذلك مرة كل ألف سنة » .

ان بعض الظن اثم يأيها الصديق المتشائم . أنا لا أشك في أن الرجل عظيم ، ولكني أعرف مئات مثله بين العدد القليل الذي اعرفه من مائة المليون عربي . ثم ما رأي العربي الملثم في الفدائيين الذين يقدمون أرواحهم بكل رضى وطيبة خاطر في فلسطين الحبيبة المحتلة ، والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

ان التغني بالمآثر مفيد لتشجيع الآخرين ، وحملهم على الاقتداء بالممدوح ، ولكن الاسراف في مدح انسان ، ووصفه بالكمال ـ والكمال من صفات الله عز وجل وحده ـ ، وقصره على شخص واحد كل الف عام ، أمر يسيء الى الممدوح اكثر مما يحسن اليه ، لان الناس سيفتقدون أن الشخص الذي أطرينا خلاله الحميدة ، متطرفين في الاسراف ، ليس انسانا لان الناس لا يخلون من العيوب . وسوف يرون أننا أخطأنا في حكمنا لاننا استلهمنا القلب في اصداره لا العقل، والعقل وحده هو القاضي العادل الذي يصدر أحكامه بانصاف على الناس جميعا .

واذا بالغنا في مدح الناس كافة حين نزنهم بميزان الادب والاجتماع ، وساوينا بينهم ، نكون قد ظلمنا الرجل العظيم الفذ عندما نساويه بالرجل الذي يتحلى باحدى الصفات المستحبة ، ويتعرى من جميع الصفات الرائعة الاخرى . والناس بطبيعتهم ميالون الى البحث عن العيوب وتضخيمها اكثر من ميلهم الى البحث عن الحسنات . فلو ذكرنا باطناب تسعة وتسعين حسنة لشخص ما ، أمام نفر من اناسي العصر الحاضر ، وذكرنا له عيبا واحدا ، لرأيناهم يضخمون ذلك العيب ، ولا ينقلون الى الناس سواه ، ولو كان عيبا بسيطا . فعدلا في أحكامكم أيها النقاد ، عدلا ، عدلا .

ولا بد لي في الختام من شكر المؤلف على ذلك الكتاب القيم الذي كان التطبيع فيه نادرا ، والاخطاء اللغوية نادرة جدا بالنسبة الى كثير من الكتب الهزيلة التي تقذفها افواه المطابع يوميا . ومع ذلك فقد سجلت عليه قليلا من الاخطاء ، ربما كانت العجلة ، وبعد الدار عن المطبعة سببا فيها :

ففي الصفحة ٢٣ جاء قوله : مضمخة بمودة وولاء أخيه في الانسانية . والصواب : بمودة أخيه في الانسانية وولائه ، لاننا لا يحق لنا ان نضع مضافين الى مضاف اليه واحد .

ووقع في الخطأ نفسه في صفحة ٣١ حيث يقول : يكون مطلعا على أسرار وغوامض القوانين المعمول بها . والصواب طبعا : .... أسرار القوانين المعمول بها وغوامضها .

وفي الصفحة ٣٩ نونت الفاء في (فوااسفا) ، والف الندبة لا ينون الحرف الذي قبلها ، وليست هنالك ضرورة من ضرائر الشعر أو مما يتطلبه الوزن توجب تنوينها . هذا اذا غضضنا النظر عن ركالة البيت المستشهد به .

وجاء في الصفحة ١٦٢ قوله : « غفلوا عن نواح عديدة » . والصواب : عن نواحي عديدة . لانها على صيغة منتهى الجموع ، فتمنع من الصرف ، وتجر بالفتحة .

وفي الصفحة ١٦٦ جاء قوله : « روحك كانت شفوفة » . والصواب : مشفوفة ، وقد وقع الشاعر حافظ ابراهيم في الخطأ نفسه ، فصحح له .

وورد في الصفحة ١٩٥ قوله : « عريس الخلود » . والصواب: « عروس الخلود » . لان كلمة عروس تطلق على المذكر والمؤنث على السواء . أما كلمة « عريس » فعامية .

هذا هو الاسلوب الذي اراه صالحا لنقد الكتب بنزاهة تامة ، فلا هو بجحيم كنقد أبي طالب زيان الذي لا يعرف في نقده العنيد القاسي سوى الكر المتواصل الذي لا يدع مجالا للخصم للرد عليه ، لانه لم يكن مستعدا لتلك المباغتة العنيفة ، ولا هو بنعيم كنقد البدوي الملثم الذي لا يكتفي بالاقتصار على ذكر الحسنات ، بل يسرف في تضخيمها اسرافا شديدا يكسبه صداقة الادباء وعداوة تاريخ الادب الذي يأبى الامعان في اللين مثل ابائه الامعان في العنف ، وفوق كل ذي علم عليم .

المدينة المنورة **محمد العدناني**

•

عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع

تأليف انور الجندي ـ سلسلة اعلام العرب ـ ٢٣٠ صفحة ـ الناشر مكتبة مصر بالفجالة القاهرة

ان تاريخ مصر الحديث حافل وعريض ، ويحتاج الى دراسات دائمة وعميقة تجلو لنا ملامحه وتوضح خصائصه ، وتبرز ما فيه من صور وعبر ، وتحدد طرقه ومساراته .. من أين تبدأ والى أين تنتهي .. ذلك ان جيلنا المعاصر يجب عليه ان يعرف هذا التاريخ معرفة سليمة وعلى ضوء هذه المعرفة يمكنه ان يحدد خطواته الراهنة والقادمة على هدى منها ومستفيدا بما فيها من دروس وخبرات .

وفي ثنايا هذا التاريخ كثير من الشخصيات المصرية التي لعبت دورا هاما ، اثر في تطور الاحداث سلبا وايجابا ، تراجعا وتقدما . ولكن الكثيرين من جيلنا ـ للاسف ـ لا يعرفون عن هذه الشخصيات شيئا ، والذين يعرفون قلة لا تدخل في الحساب !!

ومن بين هذه الشخصيات التي لعبت دورها على مسرح الاحداث في مصر الحديثة الشيخ « عبد العزيز جاويش » ذلك العالم العامل ، والعلامة المناضل ، والمسلم الواعي المستنير .

ويقدم الينا هذه الشخصية الاستاذ « انور الجندي » في واحد من كتبه القيمة التي يخرجها للناس في صمت ووقار هما طابع الباحث الجاد الدءوب ، الذي لا يرتاح الى الضجيج ولا يغريه الزعيق !

ويوضح لنا الاستاذ الجندي انه ما زال يتطلع الى تقديم نماذج حية نحن في اشد الحاجة اليها في سبيل نهضتنا الجديدة ، ومن أجل الاحتذاء بالاعلام الذين اثروا في فكرنا المعاصر والانتفاع بآرائهم وافكارهم التي ما تزال تنبض بالحياة .

ولقد وفق المؤلف الى تقديم واحد من هذه النماذج الحية فعلا في كتابه الذي بين ايدينا . فان صورة هذا الرجل كما يرسمها تبدو لنا صورة مضيئة الملامح مشرقة البسمة سخية العطاء في مجالات متعددة اهمها المجال السياسي او الوطني ومجال الاسلام او الدعوة الاسلامية .

ويبدأ المؤلف بعد المقدمة في اعطاء صورة العصر الذي عايشه الشيخ « جاويش » من حيث الصورة العامة للدولة والاحزاب وعلاقة الدولة العثمانية بكل منهما مع بيان صورة مصر السياسية والفكرية في هذه المرحلة . وينتهي الى انه في « ظل هذا الجو المضطرب ، وفي هذا المناخ الفكري الحاد ، ظهر « عبد العزيز جاويش » الذي كان في سن السابعة عشرة وقد سمع صوتين كان لهما وقعهما في نفسه فعاش معهما مدى حياته هما : صوت « محمد عبده » ، وصوت مصطفى كامل » . بيد أن المؤلف في خلال عرضه لصورة العصر يعطينا تفسيره

الخاص لما سمي بالدعوه الى الجامعة الاسلامية آنئذ فيقول « وعندي ان الدعوة الى الجامعة الاسلامية ـ مثلهـا كالتيار الوطني القومي وكالدعوة الى القومية العربية ، وسائل واسلحة اتخذتها هذه المنطقة لمقاومة النفوذ الاجنبي والحد من سلطانه » ص ١٥ وفي رأينا ان هذا التفسير قد يكون صحيحا الى حد ما ولعل « جمال الدين الافغاني » كان يهدف ايضا الى اقامة دولة اسلامية تملكمن وسائل العلم الحديث والوحدة الجغرافية والدينية ما يمكنها من امتلاكناصية القوة الحضارية وتجديد عهد ذهبي مضى وقيام أمة ذات سيادة كاملة في العالم .

ويقسم المؤلف معالم حياة الشيخ « جاويش » الى ثلاث مراحل: الاولى مرحلة الاستطلاع والتكوين ، والثانية مرحلة التالق ، والثالثة مرحلة الهجرة والاغتراب . ولكل مرحلة من هذه المراحل فصل او اكثر، اوضح فيها المؤلف علامات كل ايضاحا جيدا ، ولعل مرحلة الهجـرة والاغتراب من أحسن فصول الكتاب واكثرها امتاعا ، وقـد استطاع المؤلف ان يبرز لنا بصورة قوية صورة ذلك الشيخ الابي المكافح وهو يتنقل بين مصر وتركيا والمانيا ، وغيرها من دول اوربة وتحمله المشاق والمصاعب في سبيل الوطن وكرامته . وما اصدق قول جاويش « ان لله رجالا تخلد حياتهم اذا ماتوا ، ويزيدون ظهورا اذا قبروا ، كما ان للنار أناسا يموتون وهم أحياء ، ويقبرون في ظلمات اعمالهم وهـم على الارض يعيشون » انه من اولئك الابرار الذين يتمثلون بذلـك القول « غربتي سياحة ، وسجني خلوة ، وقتلي شهادة » . والكتاب مليء بالمواقف النادرة والبطولة الفريدة التي تميز بها وانفرد « عبد العزيز جاويش » في الوطنية والسياسة .

ويفرد المؤلف فصولا يوضح فيها شخصية الشيخ « جاويش » كمعلم ومصلح اجتماعي ومجدد اسلامي يخلص بعدها الى ابراز الملامح الشخصية ابرازا تاما ، وفي موضوعية يحكم على الشيخ من خلالها دون انقياد الى رأي من سموا به الى اعلى عليين او من سفلوا بـه الـى اسفل سافلين .. فيضع امامنا صورة رجل من رجالات مصر كان من اخلصهم لها وابرهم بها واوفاهم . دفع بكل امكانياته في غير خوف ولا وجل الا من العلي الاعلى الذي كـان يؤمن به وينصر عقيدتـه الاسلامية الخالدة .

ولقد كان حريا بالاستاذ الجندي ان يضع عنوان الكتاب هكـذا « عبد العزيز جاويش من رواد الوطنية والاسلام » وقد كان الشيخ وطنيا في صحافته وتربيته وسياسته ، وكان مسلما في تصرفه وسلوكه وكتابته . واخيرا نوجه كلمة شكر الى الاستاذ انور الجندي على مـا يبذله من جهد مضن صامت في سبيل تقديم تاريخنا الحديث سهـلا ميسورا .

القاهرة — حلمي محمد القاعود

•

الملكـة زنـوبيـا

مسرحية شعرية ـ تأليف عدنان مردم بك ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويـدات ببيروت

الحديث في مسرح الشاعر العربي الكبير عدنان مردم بك، هو الحديث في أدب الارادة الخيرة ، الفاضلة ، والصراع النفسي من أجل الحق، والعدل ، أنه مسرح الانسان المناضل مـن أجل الانسان .. موضوعاته من تاريخنا ، واساطيرنا ، وابطاله اناسي من تراثنا ، ومنا ، ولعـل بعضهم يمثل وحده بطولاتنا ، ولكنهم كلهم بشر مثلنا ، مـن بداعة الشاعر عدنان مردم بك انه يحركهم على خشبة المسرح ، وكأنهم فـي الحياة الواقعية نفسها ، فيصور صراعاتهم وتجاربهم ، وطموحـات ارادتهم بدقة ونزاهة وفن ..

ان أبطال مسرح عدنان مردم بك مكافحون اراديون صابرون ، وهم مع الفضيلة والحق والخير .. وليس فيهم شاذون او مرضيون ، ولا فيهم مظللون او مظلمو النفوس ، ان مسرح عدنان مردم بـك مسرح الفضيلة ، وهو مسرح ملتزم ، مسرح قضايانـا التاريخية والقومية ، وانسانيا القومي والحضاري ..

ذلك ان اصالة الشاعر العربي الكبير عدنان مردم بك وشمائلـه جعلته قلما شاعريا نظيفا مبدعا محبا للخير والتعاون والشورى ، ينفر من الشر والظلم ، ويأبى التعسف في حقوق الانسان ، وعلى الخصوص حرياته وكرامته .. ومن هذا هـو يختار موضوعاته ، موضوعـات صراعات كبرى لنفوس كبيرة من تاريخنا ، فيعرضها العرض الحـي ، ويحللها التحليل الدقيق ..

انها في الحقيقة الميزات التي تتكامل في مسرح عدنان مردم بك: الموضوع القوي القائم على ارادة الحق والخير والعرض الشيق القائم على وحدة العمل المسرحي في المسرحية ، والتحليل الدقيق في تصوير خلجات النفوس وصراعاتها النفسية المختلفة .. يضاف الـى ذلـك الابداع ، أي الخلق ، من عنديات الشاعر نفسه ، والتصرف في بعض الاحيان بمعطيات الوقائع التاريخية ، او الموضوعية للضرورة المسرحية في ذلك ، والسبك المتين والجزل ، والبليغ العبارة ..

وقد اجاز النقاد التصرف بالمعطى التاريخي فـي حدود الامكان الانساني في المسرحيات المستمدة موضوعاتها من التاريخ ، أي فـي حدود ما يمكن ان يكون ، وليس فقط ما هو كائـن ، دون اغراب او تفريط .. وعدنان مردم بك شأنه شأن شعرائنا المسرحيين يستجيز التصرف بالمعطى التاريخي في مسرحياته لصالـح العمـل المسرحـي ، خاصة ، انه مولع لحد التضحية بالجزئيات من اجـل وحدة العمل المسرحي ..

ان مسرح عدنان مردم بك ، من حيث وحـدة العمل المسرحي مدرسة قائمة بذاتها في المسرح الشعري العربي الحديث ، تتحاشى الاستطرادات الجانبية ، واللوحات الاستعراضية التـي نعهدها فـى مسرح احمد شوقي بك ، وعزيز اباظة .. مـن اجل تقنين العمـل المسرحي في عقدة تتأزم نحو الحل .

ومسرحية « الملكة زنوبيا » التي ظهرت مؤخرا للشاعر عدنـان مردم بك ، مسرحية تاريخية قومية من التاريخ العربي السوري ، وهي بالفعل تعكس الميزة الفنية التي اثرت عن مسرح عدنان مردم بـك ، وهي وحدة العمل المسرحي ، اذ لم يعد العمل المسرحي فيهـا عروضا لوقائع من تاريخ هذه الملكة المكافحة ، ولا سردا لاعمالها ومآثرهـا ، انما هو تصوير لموقف ، بل لمأساة تنتهي اليها المسرحية ، عند انكسار الملكة امام الغزو الروماني ثم أسرها .. وقد جعله الشاعر عدنان مردم بك استسلاما اراديا لها ، تقدم فيه نفسها فداء لشعبها ، وسنناقش المؤلف رأيه ، وانجازه المسرحي في ذلـك ، ولنعرض الآن العمـل المسرحي كما ورد في فصول المسرحية ..

المسرحية مؤلفة من اربعة فصول ، كل فصل منها يحوي مشاهد خمسة او ستة ، او اكثر ، الفصلان الاخيران مقسمان ، كـل منهما الى قسمين ، يحوي كل قسم منهما عدة مشاهد ..

الفصل الاول ، في رواق قصر زنوبيا ، وهب اللات بن زنوبيا ، وابنة عمه خولة يتساران في الحب والود ، ان خولة تغار على مصلحة وهب اللات ، وتريده مثل ابيه أذينة ، ولذلك في تحرضه علـى ان يشارك أمه زنوبيا في الحكم ، فيجيبها بأن بره بوالدته يغل يـده ، وان والدته أمينة على الملك تحافظ عليه .. تظهر زنوبيا ، ولونجين وكليكرتاس ، فتحيي زنوبيا صفارها ، وتستطلع الى رغائبهم ، ويدور

الحديث حول الامومة ، ثم الحكم والحضارة ، ثم الحروب التي تخوضها مع الرومان على حدود فارس ، وتنسحب مشغولة البال ..

يتابع لونجين وزيرها ، وكليكرتاس الكلام في الفتوحات والحروب ، ثم يعودان من جديد الى حديث الحضارة وانها ثورة خلاقة ، وثمرة القرائح ، وهناك يدخل جندي يحمل بشرى بانتصار التدمريين على العدو في وقعة ((زبدة)) الشهيرة ، وفيها قتل التدمريون هرقليان قائد الامبراطور غاليان في اراضي المدائن ، ولكن لونجين يظل سادرا لا يفريه النصر ، ويتابع تامله في الفتوحات والحرب والقوة .. ويدخل وهب اللات فيجده على تلك الحال ، فيناقشه موقفه المتحفظ ، بل المتشائم ، وانه لم ينصف فيه الابطال .. فيجيب لونجين بان البطولة ليست بالطعن والقتل ، ولكنها ابداع وسلام ..

الفصل الثاني ، في قاعة قصر زنوبيا ، فيروز رسول كسرى يثني على بطولة الملكة السورية الصديقة في قراع الاعداء ، ويعلمها ان كسرى سيظل الى جانبها يعمل معها ، ولذلك ارسل لها هدية للود الدائم ، فيتطرقون الى حديث الشرق والغرب ، وان الشرق يجب ان يكون صفا واحدا ضد الغرب الغازي المعتدي .. يدخل جندي يخبر الملكة بان روما تعبىء جيشها سرا ، وانها زاحفة من الحدود المصرية.. فتهتم زنوبيا للامر ، وتبدي رغبتها في اخذ رأي البلاط في الخبر ، رغم تصميمها على مواجهة العدو ، وعلى الخصوص اذا ضمنت عون كسرى ، ثم تخرج ..

همام ، ابو خولة ، والحارث من اقرباء الملك اذينة يتحاوران في شيء من الحذر ، وشيء من الحقد عن الحال المتردية ، وان الملكة ربما حصلت على مساعدة كسرى ، وربما لم تحصل لانها بالاحرى تعاديه ، وكان زوجها اذينة حاربه وغزا بلاده وخربها .. يدخل وهب اللات ، فيسأل عمه عن خولة بعد ان يقص عليه قصة حذرها وتحريضها ، فينصحه بالهرولة اليها ، فيخرج .. ويستمر الحديث في تشاؤم ظاهر ، وحملة ظاهرة على حكم زنوبيا ، تسمع خولة طرفا من هذا الحديث فترد عليه وتدافع عن زنوبيا ، ثم تخرج وراء ابن عمها وهب اللات ، بينما يستمر الحارث في تشاؤمه ، يقول كانما يقرأ في الغيب بأن الرواية قاربت النهاية ..

الفصل الثالث ، وهو قسمان ، القسم الاول في بيت همام والد خولة ، همام والحارث يتحدثان في الفتوحات والحروب وما جرته وتجره على البلاد من نكبات ومصائب ، ثم يلحوان في شيء من الحقد الظاهر على حكم زنوبيا ، وحكم النساء على العموم ، وينوهان بأن نشوة الانتصارات تفقر الشعب ، وتجوعه .. تدخل خولة ، فتدافع من جديد عن الملكة الحكيمة ، وان موقفها في هذه الحروب سليم ، لان الاعداء يقرعون الابواب ، ولا بد من المبادرة الى قراعهم ، يدخل رسول من عند الملكة يخبر همام بأن الملكة تدعوه في المساء الى مجلسها، فيتساءل عن السبب ، ويستفسر عن وصول القائد زبدة من زيارة التخوم ، فيخبره الجندي بانه عاد ، وانه رأى استعداد العدو وتربصه الغدر والكيد ..

القسم الثاني في قاعة الملك في قصر زنوبيا ، والحديث شورى تعرض زنوبيا على بلاطها خطورة الحالة ، وان ليس في الامر خفاء ، فقد اتضحت اطماع روما ، وان البلاد مهددة بالشرور ، ولا بد من عمل شيء لدفع الشر المنتظر .. فيشير زبدة بأن الحل السليم هو الحرب والقتال ، لان الاعداء تزحف غازية تضمر الشر ، فيوافقه همام على كلامه .. وبعد تداول تقرر زنوبيا خوض الحرب مع الرومان الزاحفين ، وانها ستقود الجيش ، فيطلب اليها ولدها وهب اللات المسير مع الجيش الزاحف ، ولكنها تنصحه بأن يظل في القصر خشية الفتن ، او خيشة كيد الاقرباء فيجيبها الى طلبها ، ويظل الحارث على تشاؤمه ..

الفصل الرابع ، في شوارع تدمر ، والجيش مدحور ، الصبية تصرخ من الجوع تطلب كسرة خبز ، والشعب هائج يتشكى ، والجند يفرقون الناس .. يبدو همام والحارث يتحاوران في الحالة، والهزيمة التي مني بها الجيش ، وان الشعب ذاق بالفعل نتائج حروبه ، وفشله ، وتبدو خولة خائفة وخاصة من المصير ، وانه لا بد من الصمود .. ويتعالى صوت الشعب من جديد بالتشكي ، وصوت الصبية بطلب الخبز ، وذلك هو القسم الاول ..

القسم الثاني ، في قصر زنوبيا ، الملكة زنوبيا وحاشيتها يتبادلون الرأي في الموقف بعد الهزيمة التي منوا بها ، ويبحثون عن سبيل الى الخلاص .. ورغم ان زنوبيا تحاول التجلد ، وتعرض كيف حاولت تحطيم خرافة سيف روما الذي لا يقهر ، ورغم امتداح لونجين لمآثرها وبطولاتها ، واعمالها ، الا انها تظل ساهمة كانما هي قررت امرا بعد هزيمة كالعلقم ..

يدخل زبدة ، ويسر اليها بان كسرى على استعداد لايوائها اذا هربت اليه ، ولكنها لا تصغي الى هذا القول ، بل تثور ولا تقبل بالهرب .. وهنا يدخل رسول قيصر الرومان الامبراطور اورليان يسألها عن ردها على طلب القيصر الاستسلام .. فتعجب كيف يصر اورليان على ابعادها عن بلادها ، واقتيادها الى روما ، ولكنها تؤثر ان تكون هي الفداء لشعبها ، تصون كرامته وتجنبه الويلات .. ووسط حاشيتها تعلن بانها تقدم نفسها فداء لشعبها ، وتنصح وهب اللات بان يعمل بامانة وضمير ، وتمشي مع الرسول حيث رقها ، بينما يمجد لونجين بذلها نفسها عن رضا فداء للشعب ..

خاتمة مأساوية ، مؤلمة حقا ، ربطها الشاعر الكبير عدنان مردم بك بفكرة (الفداء) ، وهي فكرة سورية قديمة ، نجدها في اساطير عشتار ، وعليان ، والنذور ، والاضاحي القديمة .. ولكن هل هي مطابقة لواقع التاريخ هنا ، او على الاقل لواقع النفوس ، وامكانها؟!.

ربما العين البصيرة للشاعر عدنان مردم بك في هذه التحليلات، وهذا الحل المسرحي لتدهور الحال صادقة الرؤية .. اذ ربما كانت

هناك عروض مغرية من قبل قيصر الرومان اورليان باسترقاق زنوبيا، وعرضها في السلاسل الذهبية حقنا للدماء .. ولكن التاريخ يروي ان اورليان دمر تدمر عام ٢٦٢ ، وان زنوبيا هربت منه الى فارس ، الا ان الجيش الروماني استطاع القاء القبض عليها وهي تعبر الفرات !!.

الشاعر عدنان مردم بك اغفل قصة هذا الهرب مطلقا ، والذي هو واقعة تاريخية ، واستبدله كخاتمة لمسرحيته بتقديم النفس كبش فداء .. وذلك كي لا تهتز الشخصية الفاضلة والمكافحة التي يرسمها للملكة زنوبيا ، على ما يبدو ..

الملكة زنوبيا في المسرحية أم حنون ، وحاكمة حكيمة ، وبانية حضارة ، ومحبة للشورى ، وهي الى جانب ذلك محاربة وفاتحة حاربت عدة مرات في جبهات مختلفة .. ولكنها أيضا ، والى جانب هذا كله ، في التاريخ ، قد هربت الى فارس ، لتفادي خطر الرق ، وكيد المنتصر في عدوه المهزوم ..

وبالفعل ان رسم عدنان مردم بك لملامح شخصية زنوبيا في المسرحية موفق ، وصادق .. ولكنه لماذا أغفل حادث هربها الى فارس ، وضبطها على الفرات ، واستبدلهما بفكرة الفداء ، وتقديم زنوبيا نفسها كبش فداء لشعبها ؟! .

ذلك على الارجح ، للضرورة المسرحية في البناء المسرحي ، والعمل المسرحي على السواء ، لان البناء المسرحي ، والعمل المسرحي بادخال عناصر جديدة عليهما سيهتزان ، رغم ان المؤلف اورد في مسرحيته حديث قبول كسرى ايواء زنوبيا اذا هي هربت اليه ..

ولذلك اطمئن الشاعر الكبير عدنان مردم بك بانه اذا اصطنع في المستقبل حادث هربها الى فارس ، وضبطها على الفرات لما اهتزت شخصية الملكة زنوبيا ، بل لكان ذلك أقوى مسرحيا لها ، وللملامح الحكيمة الفاضلة التي لها ..

من اوصاف الامومة عند زنوبيا هذه الاشعار ، على لسان زنوبيا:

اولادنا متع الحياة   ونشوة تتجدد
تهفو الجوانح صبوة   من دونهم وتعربد
والليل يشرق عن ضحى   فيهم ويسطع فرقد
ما مثلهم في الكون من   نعمى تس[illegible]
يحلو بهم شظف الحياة   وجنحه المتلبد
اولادنا كانوا الربيع   لنا ، ونعم المسعد
حتى أخال القلب يطفر   اثرهم ، ويزغرد
لا يستطاب بدونهم   عيش ويعذب مورد

ومن اوصاف حفظ الوفاء للزوج ، هذه الاشعار على لسان زنوبيا أيضا :

زوجي الذي رفع البناء   الى السماك وشيدا
ما مثله شاد الرجال   وكان فذا سيدا
تبنى الملوك لشهوة   جمحت وتنشد سؤددا
وبنى (أذينة) حضارة   سمقت وشاد مخلدا
ما كنت ناكرة له ،   عمري ، وجاحدة يدا
اسعى لحفظ تراثه   واصون مجدا يفتدى

ومن اوصاف حب الشورى عندها ، قولها أيضا لحاشيتها :

ما كنت أبرم دونكم   حكما ولا أقضي بامر
الملك كان أمانة   ترعى بجانحه وصدر
في حملها شقي الكريم   وناء من جهد وعسر
عبء الامانة دونه   الاعناق ترزح تحت وقر

توقف قليلا ثم تتابع :

ما ملك قومي بالقليل   ولم يكن يوما ينزر
من دونه التاريخ قام   محلقا بجناح نسر
والمجد من خلل السطور   يشع مؤتلقا كفجر
ألام ان كنت الحريصة   دون تاريخي ومصري
والحر من صان الامانة   مشفقا بذمام حر

ثم تقول :

أعملت رايي علني   أحظى على حل مسر
لم الق غير الحرب   من حل لادفع ثوب شر
الحرب وقر دونه   الاكتاف ترزح تحت وقر
وحصيلة النصر المؤزر   فيض أكباد ، ونحر
لكنما المضطر يمضي   للوغى عدوا ، ويجري
ما كان لي من حيلة   غير النضال لكشف ضر
لا يدفع الشر الجليل   اذا تفاقم غير شر

وغير ذلك من امثلة بليغة العبارة ، متينة السبك ، قوية الدلالة على شخصية زنوبيا ، وعلى العمل المسرحي نفسه ، ومرتبطة بهذه الشخصية ، وبالعمل المسرحي برباطات الحيوية والشاعرية والصدق والفن ..

بالفعل العمل المسرحي في المسرحية موحد .. ان مسرحية الملكة زنوبيا ليست من نوع السرد الاستعراضي للتاريخ الشخصي ، او للمآثر الشخصية لزنوبيا .. انها من نوع الفاجعة المأساوية التي يتغلب فيها المبدأ الاخلاقي على الظروف ، ويحتم الحل .. والمبدأ الاخلاقي هنا هو الفداء ، الذي كان من قبل مبدأ دينيا ..

واذن المسرحية مسرحية ذهنية .. في مأساة فداء ، تفتدي فيه زنوبيا شعبها بأن تقدم نفسها للرق ، وهكذا اراد الشاعر عدنان مردم بك ، رغم اننا طمأناه بأن تضمين هرب زنوبيا ، وضبطها على الفرات ربما أفاد الشخصية التي يرسم ، والبناء المسرحي الذي يسوي ، ولم يضر بهما ..

هناك بعض الملاحظات ، على لمحات حضارية ، وردت في المسرحية كنت أحب لو استغلها المؤلف اكثر في عمله المسرحي ، وبنائه المسرحي وتحليلاته ، مثل التكهن والعرافة والغيب ، والتي نرى وجها جانبيا لها ، هو بالاحرى وجه نفسي ، في تشاؤم همام ، والحارث ..

في حين المعروف ان المعبد التدمري معبد تكهن وعرافة وسحر ، وهو وريث المعبد البابلي ، والآشوري في تمجيد الكواكب ، والسحر نفسه .. وحبذا لو ان المؤلف مردم بك استغل ذلك ، واظهره الى جانب ما اظهره من خدمة الحضارة ، والسلام في تدمر وقتها ..

ومثال ذلك ، الدخلاء في مملكة زنوبيا ، فقد اشار المؤلف مردم بك اليهم دون توسع في القول او تنويه بهم واذاهم .. مع انه بمكنته التوسع في حديثهم ، واستغلاله ايضا في التحليلات نفسها ، من أجل رسم صورة المجتمع السوري ، والتدمري وقتها ، وحالة الفتوحات بين النفوذ الفارسي والغزو الروماني ..

السبك حقا متين جزل ، وسوف يصمد هذا المسرح الشعري الحديث ، أن شاء الله للزمن نموذجا على ابداع الشاعر العربي الكبير عدنان مردم بك ، وشاعريته الاصيلة الخلاقة .. والحوارات في المسرحية كلها الحيوية ، يحملها الشاعر عدنان مردم بك كل ما يريد من لواعج وخلجات وهواجس ، وايضا من عمل مسرحي ..

ولست اريد ان اكرر ما سبق ان قررته في نقدي مسرحيات المؤلف السابقة ، من التزامها المجزوء من البحور ، او موسيقى النظم ، والعبارة فيها .. ولكني اذكر هنا ان هذا الايثار للمجزوء ، والذي نلاحظه في هذه المسرحية ايضا هو ايضا صورة من صور الابداع المسرحي ، خاصة الحرص على توفير الحيوية للغة المسرح الشعري ، ولغة الحوارات المسرحية الشعرية .. والى اللقاء في نتاج مقبل ..

دمشق   عدنان بن ذريل